2

المرحلة النهرينية:(Mesopotamian)

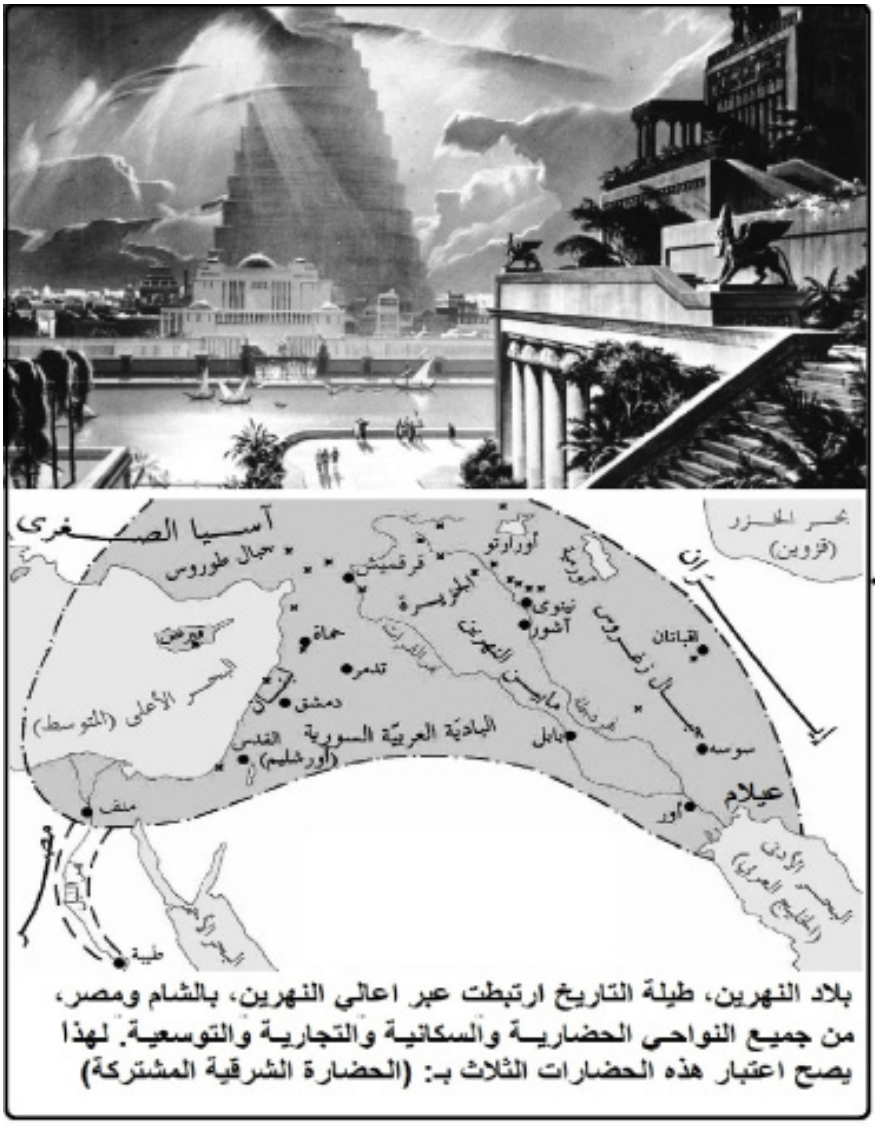

بلاد النهرين، طيلة التاريخ ارتبطت عبر اعالي النهرين، بالشام ومصر، من جميع النواحي الحضارية والسكانية والتجارية والتوسعية. لهذا يصح اعتبار هذه الحضارات الثلاث بـ: (الحضارة الشرقية المشتركة)

طبيعة النهرين اساس الانسان والدولة والحضارة

ان (الطبيعة الطينية) لبلاد النهرين قد اثرت في جميع مجالات الحضارة، مثل المعمار من الطابوق المفخور والواح الكتابة والنقوش

كما وضحنا في الفصل السابق، الاهمية الحاسمة للجغرافية والبيئة النهرية في تاريخ العراق قديماً وحالياً. منذ ان وجد فيه الانسان في الحقب المجهولة انتبه الى أن الحياة مستحيلة دون التفاهم مع أنهار هذا الوادي: (دجلة والفرات وما حولهما وما يتفرع منهما)، ومعرفة أسرارها من اجل تنظيمها والاستفادة منها[1]، والقنوات والسدود، وتأسيس شبكة غطائية كثيفة من السواقي من كل مقياس ابتداء من قنوات الحمل وقنوات التغذية إلى مساقي الحقول. فحتى تبقى الزراعة والحياة لا بد من تفّهم الطبيعة وتطبيعها. وهذا يتطلب دائماً وجود مؤسسة مشتركة قادرة على إدارة النهرين، أي (الدولة المركزية). ويكون دورها أيضاً تشكيل إدارات وقوانين للفلاحين كي يقبلوا بالتنسيق العقلاني والسلمي في حصصهم من شبكات الري. ومن هنا يكون التنظيم الاجتماعي والاداري الدولي[2] شرطاً

(1) ـ إن أنصار الطبيعة في العصر الحديث يسخرون من الفكرة الاوربية التي انتشرت في العصر الصناعي القائلة بـ: (الصراع ضد الطبيعة.. التغلب على الطبيعة.. التحكم بالطبيعة.. الخ) وهي مقولات تنم عن سذاجة وغرور العقل الحداثي الاوربي. فمن المستحيل السيطرة على الطبيعة وتغيير قوانينها الازلية: أنظمة المواسم والليل والنهار والمناطق الاستوائية والثلجية، والميلاد والموت والمرض.. الخ.. إن الصحيح هو القول: (التفاهم مع الطبيعة) ومعرفة خفاياها من اجل الاستفادة منها..

(2) ـ نحن مع التمييز بين كلمة (حكومة وحكومي) أي القيادة العليا للدولة، وكلمة (دولة ودولتي) وهي أشمل وأثبت مكانياً وزمانياً، فإن الحكومات تتغير ولكن الدولة شبه ثابتة مهما تغيرت القيادات الحكومية.

أساسياً للحياة. إن هذا (التفهم الضروري للطبيعة، وحتمية تشكيل إدارة مركزية للري)، أساس انبثاق اولى الدول والحضارات في العراق (وكذلك نفس الحالة بالنسبة لمصر)[3].

إن هذه الطبيعة أيضاً حددت ماهية الوجود المعنوي والثقافي، من عقائد وأفكار وكتابة. مثلاً، إن عدم وجود صخور صالحة للبناء (مثلما في مصر)، دفعت أهل النهرين الى الاعتماد الكلي على أطيان النهرين الغرينية النقية، في البناء والفخار والكتابة المسمارية على ألواح الطين. بل بلغ بهم الحال أنهم أطلقوا على (الانسان) تسمية (آدم: اديم الارض: الطين الاحمر: ومنه: دم)![4]

إن طبيعة أرض النهرين هي التي ألهمت العراقيين إبداع الإله (تموز) كرمز للخصب الذكوري المتمثل بالمياه المتدفقة من النهرين الخالدين، مع الآلهة (عشتار) كرمز للخصب الأنوثي المتمثل بالأرض الأم مانحة الخضرة والحياة. بل إن التاريخ العراقي يوضح لنا أن جميع الاجتياحات الأجنبية لبلادنا وهجرات الشعوب والقبائل إليها، كانت مدفوعة أساساً برغبة الاستفادة من خيرات الطبيعة؛ أي خصب النهرين!

إن جميع الهجرات السلمية والحربية والاحتلالات الأجنبية، ظلت مدفوعة برغبة الاستحواذ على خصب النهرين. بل حتى في العصر الحديث، قد بدأ الصراع الاستعماري على (العراق)، منذ (اكتشاف النفط) فيه قبل قرن، منذ ذلك الوقت وهو يعاني من الحروب والاحتلالات والانقلابات والمؤامرات من أجل السيطرة على هذه الثروة الطبيعية، بالاضافة الى الموقع الاستراتيجي الحاسم وسط الشرق الاوسط.

(3) ـ لقد برع بتفصيل هذه الحالة (النهرية)، الباحث المصري الراحل (جمال حمدان) في كتابه الموسوعي: شخصية مصر.

(4) ـ يعود تاريخ أقدم توثيق لتسمية (آدم ـ Adamu) في قائمة الملوك الأشوريين بمعنى (انسان)، كذلك الكنعانه، ثم في العبرية (سفر التكوين).

ما قبل الحضارة

الملاحظة المهمة جدا في تاريخ وادي النهرين: ان توطن الانسان بدأ في شماله قرب (نهر دجلة: اربيل كركوك الموصل)، ثم انحدر الناس نحو الجنوب. ولكن على العكس، فإن الحضارة بدأت من الجنوب:(سومر) ثم صعدت نحو الشمال. ان هذا الاختلاف يعود الى سهولة الزراعة في الجنوب لسهولة السقي من النهرين، بينما الشمال فأراضيه المرتفعة عن دجلة ، جعلته يعتمد على (الزراعة الديمية: البعلية: المطرية). وكذلك لبعد المسافة عن نهر الفرات. فهو محصور بين الجبال من الشرق والشمال، وبادية الجزيرة من الغرب. هذه صورة كهف (شاندار: شمال العراق: اربيل) قرب (نهر الزاب الكبير) وبارتفاع اقل من 800 متر. وهو من أكبر الكهوف واقدم موقع توطن لانسان النهرين، قبل حوالي 70 الف عام.

نحن مع الفكرة القائلة بأن (الحضارة: وهي المستوى الارقى والاعقد من الثقافة) مرتبطة بـ (الكتابة)، ولكن (الثقافة: وهي حالة معرفية أولية وأساسية تميز الانسان عن باقي المخلوقات)، لا تحتاج الى كتابة بل هي طبيعية وغريزية مصاحبة للمجتمعات. (تعريف مفصل في نهاية هذا الفصل).

إن وادي النهرين، (ماقبل الحضارة والكتابة)، كان من بين المناطق التي عثر فيها على أقدم وجود بشري، في شمال العراق (كهف شاندر: اربيل) بين عام 65000 قبل الميلاد و35000 ق.م: (إنسان نياندرتال)[5] مع مقابر يعود تاريخها إلى حوالي عام

(5) ـ (كهف شنايدر) يقع على ارتفاع (722 متر) شمال اربيل، وتم إيجاد أدوات مثاقب حجرية مقاشط وسكين حجرية. وبقايا عظام حيوانات ماعز وسلاحف وغنم كذلك 9 هياكل عظمية للإنسان نياندرتال.
كذلك كشف عن موقع آخر وهو (كهف زرزي وهزار مرد) جنوب السليمانية، ويقدر عمر الإنسان فيه 50 الف ق.م.

11.000 ق.م. وقبل ما يقرب من 10000 عام ق.م كان العراق (مع الاناضول وبلاد الشام) مركزاً لأقدم الثقافات البشرية في العصر الحجري الحديث (عهد ما قبل الفخار، حيث ظهرت الزراعة وتربية الماشية لأول مرة في العالم).

كذلك هنالك (موقع جرمو: قرب كركوك) (حوالي عام 7100 قبل الميلاد)، و (ثقافة تل حلف: شمال الموصل: الحسكة السورية)، وفترة (تل عبيد: محافظة ذي قار) (بين 6500 قبل الميلاد و3800 قبل الميلاد)، ثم (الوركاء) وأخيراً (جمدة نصر: محافظة بابل). إن هذه الفترات تظهر مستويات متزايدة من التقدم في الزراعة وصناعة الأدوات والهندسة المعمارية.

مع انتشار القرى الزراعية بدأ الاستيطان في الجنوب بحدود 6 آلاف ق.م، وشرعوا بتحويل البيئة الوحشية من الأهوار والمستنقعات والأحراش أو البادية الجرداء إلى بيئة زراعية مروية معطاء.

لقد شهد النهرين خلال هذه الفترة تشكيل أسس انبثاق المجتمع المتحضر، عبر اتساع الزراعة وبداية الحياة الحضرية ونشوء أولى المدن. وعرف بناة الحضارة أيضاً فن التعدين وابتدعوا دولاب الخزف، وصنعوا الآجر الفخاري والعربة ذات العجلة، وكذلك المحراث فضلاً عن السفن الشراعية. وبدايات فن النحت، وظهرت كذلك المباني العامة كالمعابد حيث كثرت وازدادت أهميتها منذ طور (تل العبيد).

وكان من أبرز المبتكرات التي لها أهميتها الاجتماعية والتاريخية آنذاك هو (الفخار) الذي أصبح تطور صناعته وزخرفته وشكله مقياساً لتمييز حقب من التقدم في العصر الحجري الحديث. وشاع استخدام المعادن وتطور النمط العمراني بتطور المباني وتطور تلوين الخزف، وتطورت المعابد وتطور الفن واتسع انتشار مراكز الاستقرار الاجتماعي في وسط العراق ونموّها السريع وظهور الدولاب الذي يصنع به الفخار وبدأت الحضارة تأخذ طريقها إلى خارج المناطق المجاورة لبلاد النهرين.

والملاحظ على معظم المدن الحضارية تركّزها فيما حول نهر الفرات في القسم الأوسط والجنوبي من العراق. والراجح أن جريان الفرات في أرض مستوية، جانبها الغربي هضبي مرتفع، تنحدر باتجاه دجلة جعل حوضه أكثر ملاءمة للاستقرار البشري،

إذ يمكن التحكم في فيضانه بتحويله عبر قنوات إلى دجلة إضافة إلى إمكانية إقامة المدن على الحافات المرتفعة غربي النهر. والذي يتدفق في قوس المدن الأولى (أور وأريدو والوركاء ونفر).

***

أقاليم النهرين ولغاته وأقوامه

كما وضحنا في القسم (1) فإن (وادي النهرين) رغم توحده الجغرافي حول النهرين، إلّا انه مثل جميع البلدان الواسعة، منقسم الى (خصوصيات جغرافية داخلية) تخلق نوعاً من (الخصوصيات السياسية الادارية). وقد تنازعت بينها للسيطرة الكاملة عليه، من خلال السيطرة على (بابل) التي هي المركز الجغرافي الوسطي والسياسي والحضاري لعموم النهرين (مثلما أصبحت بغداد، فيما بعد):

1ـ اقليم بابل، نسبة الى (مدينة بابل) وسط الفرات. وقد ورد اسمه في التوراة بـ (أرض شنعار: شيني نهار: أرض النهرين)، وشملت أساساً جنوب ووسط العراق الحالي. وقد جمعت في شخصيتها بين ثقافة السهل الخصيب المنفتح، وثقافة البادية الغربية المحاذية للفرات، حيث استمر التواصل بين الطرفين لأسباب تجارية وهجرات متبادلة لأسباب مختلفة. وبالنتيجة إن الثقافتين، الزراعية والبدوية كانت مرتبطتين بالسهول المنفتحة والسماء الساطعة، التي تدفع الى الانسيابية والتأمل السماوي الروحي والارتباط بالنجوم والفلك ونظام الابراج..

2ـ اقليم آشور، وتمركز في شمال النهرين أعالي دجلة (مدن نينوى وآشور ونمرود). وشملت ما سميّ فيما بعد (منطقة الجزيرة) التي تجمع بين الحياة الزراعية النهرية وحياة أهل الجبال الشرقية المحاذية (زاغاروس). فكان الميل عموماً يجمع بين الروح الثقافية والفنية لحواضر دجلة، وروح أهل الجبال التي تميل الى الفعل والحزم والنشاط الاداري والحربي.

3ـ اقليم عيلام، وتمركز في أقصى جنوب شرق بلاد النهرين (الاحواز الحالية) بين شط العرب وجبال زاخاروس وخليج البصرة. وكان العيلاميون منذ فجر التاريخ في

تواصل دائم مع السومريين وربما كانوا بالأصل نفس الشعب، ولكن اختلاف الجغرافية واختلاف الجيران الجبليين لـ (عيلام)، عن الجيران أهل البادية الغربية لـ (سومر)، قد أثَّر على اللغة والعقلية.

لغات وأقوام النهرين

ثمة هوس غريب قد استحوذ على الباحثين اسمه: (اصل السومريين)؟ وكل باحث افترض قدومهم من بلاد ما! بل ذهب البعض الى انهم نتاج تمازج اهل الفضاء (انوناكي) مع اهل الارض القدماء! لكن المكتشفات الجينية الاخيرة قد اثبتت انهم يحملون نفس الجينات السامية الاكدية: (J1)، اي انهم بكل بساطة من ابناء النهرين ومن المحتمل من شماله العراقي ـ السوري: الجزيرة، موطن الساميين

إن اختلاف اللغات لا يعني اختلاف الاصول السلالية. فهنالك عوامل كثيرة تؤثر في اختلافها ومتغيراتها: سياسية ودينية وجغرافية، وغيرها.. في هذه المرحلة يمكن الحديث عن ثلاث لغات مختلفة:

1. السومريون واللغة السومرية

وهي أقدم لغة مكتوبة في التاريخ، في بداية الألفية الثالثة ق.م. نحن نميل الى الفكرة التي بدأت تنتشر بين المؤرخين في السنين الاخيرة، بأنه لم يوجد (شعب سومري) بل فقط (لغة سومرية) اصطنعها في البداية رجال الدين الأكديون (الساميون)، ثم توسع استعمالها كلغة فصحى ثقافية ودينية، ولم تكن لغة شعب[6]. ليس هنالك أي

(6) ـ حول هذه الإشكالية راجع:
ـ نائل حنون: حقيقة السومريين ـ دار الزمان ـ دمشق 2007. كذلك الفصل الأول: =

مصدر أثري واحد يشير إلى قوم بـ (سومريين)، فهي من إضافات المؤرخين الأوربيين وخصوصاً (نوح كريم: Noah Kramer). فإن العبارة السومرية المكتوبة: (خمس جرار إلى الأرض)، يترجمها (كريمر): (خمس جرار إلى أرض سومر). بالإضافة إلى أدلة عديدة منها أن اللغة السومرية تشكل أساس اللغة الأكدية (وعموم اللغات السامية والعربية)، بل ان 80% من (لغة ايبلا) الكنعانية في سوريا هي سومرية. العلاقة بين (اللغة البابلية ـ الآشورية) و (اللغة السومرية) تقارب العلاقة بين العربية والسريانية.

وإن هناك عدداً كبيراً من المفردات والمقاطع السومرية الرمزية وضعت لأول مرة بعد الاختفاء المفترض للسومريين بأكثر من خمسة قرون ما يعزز ويؤكد أن تلك المفردات وضعت من قبل الآكاديين أنفسهم. إذا كان الآكديون وضعوا المفردات السومرية في ذلك الزمن فما الذي يمنعنا من الاعتقاد بأنهم وضعوها قبل ذلك الزمن؟!

ويتفق الجميع على ان (حضارة بابل وآشور) مستمدة من (سومر)، وأن آلهة (بابل ونينوى) وأساطيرهما الدينية هي نفسها التي في (سومر). ثم إن الجدل المستمر منذ قرنين حول (أصل السومريين) و (من أين أتوا) فهو مصطنع لا معنى له، ويمكن أن يطرح عن جميع شعوب العالم: من أين أتوا؟

إن (علم الجينات) في السنوات الأخيرة قد حسم الجدل؛ إذ أثبتت الفحوصات الجينية أن السومريين يحملون نفس جينات الساميين (J1) كما بيّنا سابقاً. إن آثار من أطلق عليهم خطأ: (السومريين) تدل على أنهم لم يختلفوا عن (الاكديين) إذ كانوا يعيشون في كل أنحاء العراق، وقد ظهرت معالمهم في أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، في جنوب العراق (أرض شنعار). في هذا السهل الخصب قامت المدن الأولى مثل (أور وأوروك ونيبور ولارسا ولجش وكولاب وكيش وإيزين وأريدو وأدب). وليس صدفة أن تبقى اللغة السومرية متداولة ثقافياً ودينياً في (بابل وآشور) حتى نهاية

= GEORGES ROUX – LA MESOPOTAMIE – SEUIL – PARIS – 1985 ـ

ـ كذلك الكتاب المهم عن العلاقة بين السومرية والسامية: الجذور السومرية لنشأة اللغة العربية واللغات الأفروآسيوية، للباحث الليبي القدير الدكتور عبد المنعم محجوب.

ـ دراسة جيدة منشورة بعنوان: هل اللغة السومرية عربية الجذور؟ محمد ذوق.

الحضارة النهرينية في القرن السادس ق.م. مع انتهاء استعمال الكتابة المسمارية في العراق والشرق الاوسط، لتحل محلها الكتابة (الحروفية) الكنعانية.

السومرية والاكدية ومثال: (لغة القرآن) ولغة الجنوب!

هنا نقترح بعض التعديل والتفصيل عن (أصل السومريين والاكديين، ولغتيهما): بناء على هذا الترابط الكبير بين (السومرية) و(الاكدية السامية) حيث ثبّت هذا أكثر وأكثر في البحوث اللغوية في السنوات الاخيرة[7]. إذن الفرق بين الطرفين، ليس أقواماً في الاصول، بل الفرق اجتماعي ثقافي لهجوي.

لتوضيح الفكرة، يمكن تشبيه حال (السومريين) بحال (سكان بغداد: البغادلة) في القرن العشرين. حيث بدأت جموع المهاجرين من فلاحي الجنوب (الشروگية: الشرقية) حتى أصبحوا في أواسط القرن هم الغالبية العددية في المدينة. ونحن نعرف إنه ليس هنالك فروق أقوامية وأصولية محددة بين (البغادلة) و(الشروگية)، لكن هنالك فروقاً واضحة في الثقافة والعادات واللهجة (اللغة). يمكن ايضا تشبيه (اللغة السومرية) بـ(العربية الفصحى: لغة القرآن)، و(الاكدية) بـ(اللهجة الشعبية) لغة المهاجرين (الاكديين) الذين يشكلون الطبقة المهمَّشة في (المجتمع السومري) المديني المتحضر. ومثلما حصل مع (اهل الجنوب) (وكما حصل مع جميع المهاجرين في تاريخ البشرية)، إذ تمكنوا مع الاجيال من التمدن والسيطرة التدريجية على المجتمع ثم على الدولة وبالذات بعد عام 2003... هكذا تمكن (الاكديون) من الصعود والسيطرة مع الانقلاب الداخلي الذي قام به (الزعيم سرجون الاكدي)[8]، الذي لم يكتف بالسيطرة على الدولة، بل أنجز تغييراً كبيراً في السيطرة اللغوية: إقرار اعتماد اللهجة الشعبية (الاكدية) كلغة رسمية وكتابتها بطريقة سهلة وشعبية أقل تحجراً وتعقيداً من (السومرية: العربية الفصحى) التي كانت تتقيد بكتابة مقاطع الكلمات. ويبدو أن هذا القرار كان له أساس شعبي قد فرضه التطور الحضاري واللغوي في بلاد النهرين. ولنا على هذا مثال كبير ومعروف، عندما قام الاوربيون في القرون الوسطى بالتمرد على (اللغة اللاتينية المقدسة)، وتدوين لهجاتهم الشعبية: (الايطالية والفرنسية والاسبانية..) لأنها أسهل وأقرب الى حاجات الشعب. ومثلما بقيت (اللاتينية) لغة دينية خاصة حتى الآن، كذلك بقيت (السومرية) لغة مقدسة خاصة بالصفوة طيلة المرحلة النهرينية، بجانب (الاكدية) لغة الشعب والثقافة.

2. الناطقون بالأكدية: البابلية، الآشورية

الكثيرون يظنون أن هنالك لغات مختلفة: اكدية وبابلية وآشورية وكلدانية الخ وهي لغات شعوب مختلفة. ولكن الواقع يؤكد أن هنالك لغة واحدة هي (الاكدية) هي نفسها دامت حوالي 3000 عام، كلغة رسمية ودينية وثقافية وحيدة في جميع الدول

(7) عن العلاقة بين السومرية والسامية، طالع مثلاً الكتاب المعروف:
ـ ما قبل اللغة، الجذور السومرية للغة العربية واللغات الأفروآسيوية: عبد المنعم المحجوب

(8) ننبه إن وصفنا (الشروگي) مجازي للتشبيه فقط.

والسلالات المختلفة: أكدية، بابلية، آشورية، عيلامية، كلدانية[9]. وإن هذه اللغة هي أقدم واولى اللغات السامية المدونة.

مشكلة أصل الساميين[10]

لقد أشاع العروبيون إن أصل الناطقين باللغات السامية يعود إلى (الجزيرة العربية) ولا زالوا يطلقون عليهم (الجزيرون، واللغات الجزرية)! والحقيقة أن هذه الفرضية أصبحت ملغية بعدما كانت واحدة من عدة فرضيات يتداولها علماء الآثار والتاريخ، منها أن أصل الساميين من القفقاس، أو من الشام، أو من العراق، أو من شمال أفريقيا!!

إن البحوث الجينية بينت أن الشعوب السامية (الجينة J1) هم السكان الأوائل في المنطقة الممتدة بين جنوب العراق وسواحل الشام: (الهلال الخصيب) الممتدة عند سفوح (جبال زاغاروس وجبال طوروس). وهم أشقاء شعوب الشرق الأوسط ذوي (الجينة J2). وأنهم منذ القدم أيضاً قد امتزجوا بالجماعات القادمة من (مصر وشمال أفريقيا) الحاملة للجينة (E) وشكلوا ما سمي بالشعوب السامية ولغاتهم.

قبل أكثر من قرن قال (عالِمُ اللغات السامية: هاري ولفسون:Harry Wolfson):

((فبعضهم يزعم أن المهد الأصلي للساميين إنما هو أرض أرمينية (القفقاس)، وبعضهم يقول: إن هذه المنطقة هي المهد الأصلي للأمم السامية والأمم الآرية جميعاً، ثم تفرعت منها جموع البشر في أرض الله الواسعة)). وللتوراة نظرية خاصة عن أقدم ناحية عمَّرها بنو نوح وهي أرض بابل، وقد تكون هذه النظرية أقرب إلى الحقيقة. فقد أثبتت البحوث التاريخية أن أرض بابل هي المهد الأصلي للحضارة السامية، وقد أيَّد العالم (جويدي) هذه النظرية في رسالة يقول فيها: إن المهد الأصلي للأمم السامية كان في نواحي جنوب العراق على نهر الفرات، وقد سرد عدداً من الكلمات المألوفة

(9) ـ أفضل توضيح عن استخدام اللغة الاكدية بلهجتيها (الاشورية والبابلية)، مثال (العربية) التي بقيت هي اللغة الرسمية، ولكن هنالك لهجتان: موصلية وجنوبية..

(10) ـ عن أصل الشعوب الناطقة بالسامية، طالع دراسة مهمة حديثة بالانكليزية:

ـ Dr. Igor P. Lipovsky Where did the Ancient Semites come from

وقد انتشرت لهذه الدراسة عدة ترجمات وملخصات. ابحث:

ـ من أين جاء قدماء الساميّين؟ / إيغور ليبوفسكي

في جميع اللغات السامية من العمران والحيوان والنبات، وقال: إن أول من استعملها هم أهل تلك المنطقة، ثم أخذها عنهم جميع الساميين[11].

إن الهلال الخصيب ظل مأهولاً بالبشر منذ عشرات الآلاف من الأعوام، وفيه نشأت أولى المستوطنات الزراعية منذ الألف التاسع ق.م، وظهرت معالم الحضارة في الألف السادس ق.م في حسونة وسامراء وحلف والعبيد وأوروك وجمدة نصر[12].نحن لسنا بحاجة للبحث عن أصول خارج منطقة الهلال الخصيب لهذه الشعوب السامية.

إن أول ظهور في التاريخ لهذه الشعوب ولغتها وحضارتها، حدث في منطقة المشرق[13]. في العراق والشام أسس الساميون أولى الحضارات في تاريخ البشرية (بجانب الحضارة المصرية) في الألف الثالث قبل الميلاد. بالنسبة لسوريا فإن (إيبلا) أول حضارة فيها، وكانت منذ البدء ناطقة بالسامية. بنفس الحقبة ظهرت أول حضارة عراقية، رغم أنها كانت ناطقة بالسومرية إلاّ أن الآثار والمصادر تدل على أن الساميين الأكديين كانوا منذ البدء من المشاركين بها أيضاً. بل هنالك فرضية تنص على أن السومريين والساميين كانوا من نفس العنصر، حيث دلت البحوث الأخيرة على تشابه تام بينهم في الشكل والدين والحضارة. وأن زيادة السكان المفاجئة في هذه الحقبة في الجنوب العراقي كشفت عن وصول هجرات من الشمال العراقي السوري، وربما أيضاً من الأحواز[14].

(11) ـ تاريخ اللغات السامية، أ ـ ولفنسون ص4 ـ 5.. كذلك راجع التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي (توماس طومسن) ص121 ـ 124.

(12) ـ (Georges ROUX/P48/57).

(13) ـ (آرام ودمشق واسرائيل / فراس السواح / ص15).

(14)ـ (Georges ROUX/P 82 - 85)

كذلك الهامش في صفحة (370: 71/2).

3 ـ عيلام، روابطها وثقافتها النهرينية

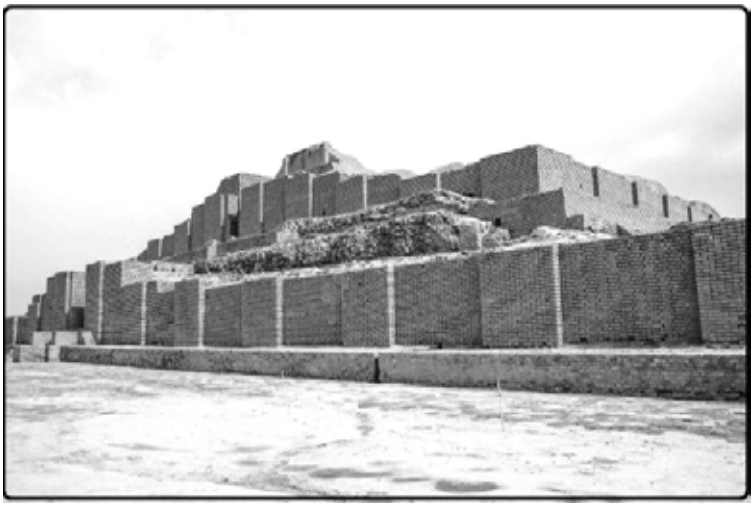

زقورة عيلام(جغا زنبيل: **Chogha Zanbil**)، وهي طبق الاصل عن الزقورات(المعابد) النهرينية، ودليل على الارتباط الديني والحضاري مع النهرين.

إن عيلام (الاحواز) امتداد طبيعي لسهل الجنوب العراقي، وليس هنالك أية فواصل طبيعية، تمنع التداخل السكاني والثقافي والسياسي مع بلاد النهرين. بل إن اسم (عيلام) أكدي (ايل ماتي: Elimatu) (الارض العالية، أو أرض الله)[15]. وإن العلاقة عيلام مع سومر قديمة، بل هناك من يعتقد بأن (سكان سومر) نزحوا من (عيلام)[16] لأن الارتباط التاريخي بين بلاد عيلام وبلاد بابل كان وثيقاً بسبب عدم وجود أي حاجز طبيعي بينهم، وهذا ما سمح بتنقل السكان بينهما في فترات السلم والحرب، وفي العصر الاكدي زادت التأثيرات بشكل واضح لدرجة أن اللغة الاكدية حلَّت محل العيلامية كلغة تدوين في الكثير من الاحيان.

إن مشكلة (عيلام) أنها ظلت سهلة الاخضاع من المنطقة الجبلية المحاذية والمطلة عليها مباشرة والتي هي حالياً (محافظة فارس الايرانية)، وفيها تأسست (مدينة انشان)

(15) ـ للتذكير، فإن كلمة (ماتي) التي كانت تستخدم في الاكدية بمعنى (موطن)، هي نفسها بالعربية (مثوى: ماتا).

(16) ـ عن احتمال نزوح أهل سومر من عيلام:

ـ Dr. Igor P. Lipovsky Where did the Ancient Semites come from

وقد انتشرت لهذه الدراسة عدة ترجمات وملخصات. ابحث:

ـ من أين جاء قدماء الساميّين؟ / إيغور ليبوفسكي

التي تمكنت في فترة من حكم عيلام بالتنافس مع (سوس: شمال الاحواز) العاصمة الاصلية والتاريخية لعيلام.

إن ما يؤكد الترابط القديم بين (سومر) و(عيلام) هو ذلك التداخل في الحكم بين المنطقتين. فهنالك نوع من التداول للملوكية بين الاثنين بصورة اعتيادية وكأنهما بلد واحد. تذكر قائمة الملوك السومريين إن الملك انتقل من مدينة (أور) إلى مدينة (أوان العيلامية) التي حكم فيها ثلاثة ملوك 356 عاماً ثم دحرت (أوان) ونقلت ملوكيتها إلى (كيش) في النهرين. ويتكرر هذا بخصوص انتقال الملوكية من (كيش) إلى (حمازي العيلامية) لمدة 360 عاماً. ثم انتقل الملك إلى أوروك وهكذا[17]. ثم سيطرت عليها دول النهرين: الاكدية من 3500 ق.م الى 2100 ق.م / ثم البابلية من 2094 ق.م الى 800 ق.م/ الآشورية من 800 ق.م إلى 612 ق.م / الكلدانية من 600 ق.م إلى 550 ق.م. خلال هذه الحقب الطويلة المتعاقبة، ظلت (عيلام) عنصراً فعالاً في التحالفات والاتحادات والصراعات بين مناطق وقوى بلاد النهرين: (سومريون، أكديون، غوتيون، آشوريون، كاشيون، كلدانيون..) من اجل السيطرة على بلاد النهرين وخصوصاً مركزها (بابل). علماً بأن مثل هذه الصراعات الداخلية قد عاشتها جميع البلدان الكبيرة، بسبب تنوع المناطق الجغرافية وقواها[18].

وأخيراً تم احتلال (عيلام) من قبل (الفرس الاخمينيين) مع احتلال (بلاد النهرين). واستمرت الاحتلالات الاجنبية للبلدين أكثر من ألف عام، حتى الفتح العربي الاسلامي للعراق والاحواز (عيلام).

أما من الناحية الثقافية (اللغة والدين والفنون والمعمار) فإن ثقافة (عيلام) هي ذاتها ثقافة بلاد النهرين، سواء من حيث الكتابة المسمارية والتفاهم باللغة المتشابهة إلى حد بعيد أو العادات والتقاليد المتماثلة. ليس بالصدفة أنه في مدينة (السوس) الاحوازية عاصمة العيلاميين، تم اكتشاف (مسلة حمورابي)، مع الكثير من الآثار العراقية القديمة.

---

(17) ـ Jean Bottéro, Clarisse Herrenschmidt et Jean Pierre Vernant:

ـ Ancestor of the west: Writing, reasoning, and religion in Mesopotamia, Elam, and Greece, University of Chicago Press, Chicago, 2000.

(18) ـ عن الصراعات الداخلية التي عاشتها جميع البلدان الكبيرة، بسبب تنوع المناطق الجغرافية وقواها، نذكر بتواريخ: المانيا وفرنسا وايطاليا والصين والهند، قبل التوحد الداخلي لكل بلد، ظلت طيلة تاريخها في صراعات داخلية مستمرة بين دويلاتها المتنافسة.

ـ التشابه الكبير لمعمار وفنون عيلام مع أمثالها في بلاد النهرين. كذلك الشبه الكبير بين الآلهة السومرية والآلهة العيلامية مثل (إنكي، كي، نرجال، جيرو، أدد، نبو، نسكو، شالا، سين.. وغيرها). كذلك هم تبنّوا عمارة (الزقورة ـ المعبد) النهريني، مثل: (زقورة دور انتاش).

لغة وكتابة عيلام، مرت بثلاث حقب مختلفة، كلها استخدمت الخط المسماري النهريني. العيلامية القديمة ثم الوسطى، وهي حتى الآن لم تفك معانيها. أما الحقبة الثالثة التي بـ (الخط المسماري الاكدي) فقد سهل قراءتها. إن العيلامية تبدو بعلاقة مع السومرية وخصوصاً أنها مثلها (لغة مقطعية). ثم منذ العهد الاكدي (حوالي 2300 ق.م)، سادت في عيلام (اللغة الاكدية) مثل باقي بلاد النهرين، وانتشرت بينهم الاسماء الاكدية[19].

4 ـ المجموعة الجبلية (الكاشية ـ الكردية)، وعلاقتها بالنهرين

(زقورة عقرقوف) قرب بغداد، وقد شيدها ملك بابل الكيشي (كوريغالزو الأول) حوالي 1300 ق.م. وكانوا على نفس الحضارة واللغة والديانة النهرينية.

المقصود بهم، (أسلاف اكراد العراق) سكان (سفوح جبال زاغاروس) في جانبها المطل على (وادي النهرين). وهذه المجموعة الجبلية شكّلت دائماً رافداً يغذي خصوصاً المناطق المحاذية لها، أي شرق دجلة، وبالذات (منطقة آشور)، بالهجرات الفردية والجماعية سلماً وحرباً. ويمكن تشبيه (هذه الجماعات الجبلية)

(19) ـ عن لغة وكتابة عيلام:
دراسة منشورة بالفرنسية / L'Élam, La civilisation Élamite

بالأنهار المنحدرة من نفس هذه الجبال: (ديالى والزابان الأعلى والأسفل) التي تغذي نهر دجلة بالمياه، هكذا استمرت هذه الجبال والسفوح تغذي (سهول دجلة) بسكان الجبال وسفوحها. إن هذه الجماعات الجبلية في العراق القديم لا نعرف عن لغتها أي شيء، لأنها لم تترك أية نصوص تتحدث عنها، لأنها كانت سرعان ما تذوب في النهرين وتصبح جزءاً منهم.

إن تسمية (كرد) تعود الى السومريين والآشوريين (كاردو/ كاردا) الذي يعنون بهم سكان أعالي دجلة المجاورين لنينوى[20]. ويقيناً هنالك علاقة مع اسم: (كاردونياش: Karduniash) الذي أطلقه (الكاشيون: وهم جبليون من أسلاف الاكراد) على (بلاد بابل) أثناء حكمهم لها خلال خمسة قرون[21].

إننا عرفنا هذه المجموعة بعد هجراتها من المنطقة الجبلية نحو سهول النهرين، مثل الغوتيين ثم الكاشيين في الألف الثالث ق.م[22]، وإنهم قدموا من الجبال واحتلوا (سومر وأكد وبابل) وتبنّوا تماماً اللغة والحضارة العراقية وذابوا بعد فترة مع باقي العراقيين، ولم يتركوا لنا ما يميزهم سوى أسمائهم. أما (اللغة الكردية) التي تعتبر (لغة آرية)، فإنهم قد اكتسبوها فيما بعد من هجرات (القبائل الآرية) التي فرضت لغتها. يبدو أن العنصر الآري بسبب طبيعته الجبلية واكتشافه آلة حربية جديدة (الخيول)، مكنته أكثر من غيره من السيطرة وفرض لغته حيث اعتبرت (اللغات الكردية) لغات (آرية إيرانية)[23].

---

(20) ـ عن اسم (كرد):

- Reynolds, G. S. (October - December 2004). «A Reflection on Two Qurʾānic Words (Iblīs and Jūdī), with Attention to the Theories of A. Mingana». Journal of the American Oriental Society. 124 (4): 683, 684, 687

(21) ـ عن تاريخ الكاشيين:

ـ بلاد بابل (كاردونياش في العهد الكيشي) سلالة بابل الثالثة/ لمياء محمد الحسيني

ـ عن كارديناش:

«Karduniash.» In The Encyclopedia of Ancient History. R. Bagnall, K. Bordersen, C. Champion, A. Erskine, S. Huebner eds. Malden, Oxford, Carlton: Blackwell.

Susanne Paulus

(22) ـ (الغوتيون) سيطروا على بلاد النهرين بعد عام 2215 ق. م، لحوالي القرن. وتبنّوا نفس الحضارة واللغة والدين وبعد ان فقدوا السلطة بمجيء السلالة السومرية، اندمجوا مع السكان. اما (الكاشيون) القادمون أيضاً من الجبال المجاورة، فقد كونوا سلاله بابلية دامت حوالي خمسة قرون (1680 ـ 1157 ق م).

(23) ـ من الخطأ الحديث عن (لغة كردية واحدة بعدة لهجات). فهي لغات مختلفة، لأن كل واحدة منها مكتوبة ولا يمكن للناطقين بها التفاهم بينهم. بل إن (اللغة الكرمنجية) وهي لغة أكراد تركيا، مكتوبة بالابجدية =

وقد بينت البحوث الجينية أن نسبة العنصر الآري أقل من نسبة العنصر السامي والشرق الأوسطي بين الاكراد. وهذا يؤكد على أن الأقوام الكردية الأصلية قد تعرضت خلال حقب التاريخ لهجرات القبائل الآرية القادمة من الشرق حيث الهضبة الإيرانية، بالاضافة الى الجماعات السامية النازحة من الغرب حيث وادي النهرين[24]. حيث لوحظ خصوصاً أن الأكراد في غرب زاغاروس ـ أي في المناطق المحاذية لوادي النهرين ـ قريبون عرقياً وثقافياً إلى سكان شمال النهرين[25].

جميع الآثار التي تم اكتشافها في محافظات الاقليم الكردي العراقي: (اربيل ودهوك والسليمانية). وآخرها في عام 2019 تمكن فريق آثار فرنسي، من العثور على بقايا مدينة قديمة مفقودة قرب محافظة السليمانية في موقع يدعى (كونارا)، ويتكون من اسس حجرية يرجع تاريخها إلى حوالي 2200 ق. م. وعثر فيها على عشرات الألواح الطينية المغطاة بالكتابة المسمارية في المدينة، من بينها ألواح تتحدث عن الزراعة وعمليات تسليم الدقيق.

هذه آثار مما لا يحصى، المنتشرة في الاقليم الكردي العراقـــي:
آثار قصر آشوري أكتشف عام 2018 في قرية الفايدة في دهوك!

= اللاتينية، بينما (اللغة السورانية) في العراق بالابجدية العربية. طالع مثلا (موسوعة ويكيبيديا بالانكليزية) تقول بكل وضوح عن: (لغات كردية ثلاثة: كرمانجي وسوراني وكوراني):

The three Kurdish languages are Northern Kurdish (Kurmanji), Central Kurdish (Sorani), and Southern Kurdish (Palewani or Xwarîn).

كذلك طالع مثلا، دراسة الباحث الكردي (برزو محمود): اللغة الكردية والصراع اللغوي السورانية أم الكورمانجية؟

(24) ـ راجع موضوع (جينات العراقيين) في المدخل الجغرافي السكاني.

(25) ـ (راجع الموسوعة الإسلامية ـ العراق، كردستان).

الميديون، وعلاقتهم بالأكراد؟

هذه الفخارية، كل ما تبقى من الميديين!

كان من المعقول أن ينتمي (أكراد العراق) الى تاريخ (الكاشيين) وهم أقدم وأعرق في الحضارة، حيث حكموا (بابل) وعموم بلاد النهرين لخمسة قرون. لكن (الحركة القومية الكردية) ومثل جميع الاحزاب العراقية، تفضل دائماً الانتماء لما هو خارج العراق. لهذا تراهم منذ أواسط القرن الماضي، وبتأثير من أكراد إيران، تبنّوا فكرة الانتماء لتاريخ ايراني، والاعتقاد بـ (الأصل الميدي للأكراد) والافتخار بما أسموه (الإمبراطورية الميدية) و(الحضارة الميدية) وحتى نشيدهم الوطني يعلن تقديسه لـ (ميديا)! وهذا الاعتقاد يتناقض تماماً مع الانتماء التاريخي والجغرافي لأكراد العراق وإلى عاصمة إقليمهم (أربيل). إنهم يتطابقون مع رفض (العروبيين) لتاريخ العراق والانتماء الى (تاريخ اليمن)، بحجة الاصل القومي[26]!

تاريخ الميديين

يبدأ تاريخ إيران المعروف والرسمي بظهور (الميديين) في وسط الهضبة الإيرانية بين جبال زاغاروس، وعاصمتهم (أكبتان ـ همادان حالياً)، في الألف السابق للميلاد، أي بعد ظهور الحضارة العراقية بأكثر من ألفي عام. المصادر الوحيدة التي ذكرتهم من

(26) ـ لا تسجل أية مصادر أكاديمية عن موضوع (الميديين) هذا، لأن المعلومات عنهم متفق عليها من جميع الباحثين، إذ يكفي البحث في الإنترنت عن (MEDES) و(Kurds and Medes) بأية لغة أوربية، مثل (ويكيبيديا بالإنكليزية أو الفرنسية)، حتى تظهر هذه المعلومات بصورة متطابقة مع ما نذكره. أما المنشورات المكتوبة بالعربية بما فيها (ويكيبيديا العربية)، فإن القوميين الأكراد قد نجحوا بفرض تزييفهم الدعائي في جميع المواقع العربية. والطريف أن هؤلاء المزيفين يضطرون إلى وضع صور تمثل آثار حضارات إيران اللاحقة (أخمينية وبارثية وساسانية)، بل حتى آثاراً عراقية، وينسبونها إلى (الميديين)!!

ملوك العراق (الآشوريين) في الحقبة التي كانت فيها السلالة الآشورية تحكم عموم العراق (نينوى وبابل) يكتبون أن (الميديين) جماعات بدوية جبلية تمتهن الغزو وتربية الخيول، وأن الآشوريين مضطرون دائماً لمحاربتهم والسيطرة على مناطقهم كي يمنعوهم من عبور الجبال والهبوط إلى وادي النهرين؛ علماً بأن نزوح البدو في تاريخ (بلاد النهرين الخصبة) أساسي جداً في تكوين تاريخه وسكانه وثقافته. فمن الغرب (بدو بادية الشام: الساميون ـ العرب)، ومن الشرق والشمال (بدو الجبال: القفقاسيون ـ الآريون ـ الأكراد). إن (قلعتي كركوك وأربيل) الباقيتين حتى الآن، قد تم تشييدهما لمراقبة وصدّ بدو الجبال.

إن أول من ذكر (الميديين) هو الملك الآشوري (شلمنصر الثالث: 859 ـ 824) في حولياته وسجل أسماء 36 من شيوخ قبائلهم. وقام غالبية ملوك آشور بشن حملات تأديبية ضدهم لإيقاف هجماتهم البدوية: (شمشي حدد الخامس: 824 ـ 811) (حدد نيراري يي: 811 ـ 783). بل ذكر الملك (تغلات فلاصر الثالث: 745 ـ 727) أنه قام بتهجير 65.000 شخص من سكان زاغاروس إلى مناطق أخرى. وقام الملكان (سرجون الثاني 722 ـ 705)، ثم ابنه (سنحاريب 704 ـ 681) بتشييد ثلاث بلدات في مناطقهم في إيران: بارشوش Parshuash وكيشين Kisheshin وخرخهار Kharkhar، من أجل تشجيعهم على التوطن وكذلك للحصول على خيولهم المعروفة وبعض المعادن الثمينة والنحاس. الملك الآشوري (أسرحدون 680 ـ 669) يذكر بأنه تحالف مع شيوخهم لمحاربة البعض الآخر، بل تم تجنيد الكثير منهم في الحرس الملكي في نينوى زمن الملك (أشوربانيبال ـ 668 ـ 627).

لكن رغم كل هذا، فإن الآشوريين لم ينجحوا في السيطرة الدائمة على مناطق هؤلاء البدو، بسبب وعورة الجبال وصعوبة المواصلات. حتى نجح الميديون أخيراً في تقديم العون إلى الكلدانيين (سلالة من جنوب العراق) لإسقاط حكم السلالة الآشورية. وتقول المصادر اليونانية (الرحالة هيرودوتس) فيما بعد: إنه نتيجة هذا التحالف قام الملك العراقي الكلداني (نبوخذ نصر الثاني 562 و605 ق.م) بالزواج من (أميتس) ابنة الملك الميدي، وشيّد لها (الجنائن المعلقة) في (بابل) من أجل إسعادها وتعويضها عن حياة الجبال.

لغتهم وثقافهم

إن المؤرخين لا يتحدثون عن (حضارة ميدية) ما داموا لم يمتلكوا حتى قدرة على الكتابة، بل يصح الحديث عن (ثقافة ميدية) مثل جميع الشعوب، بدائية أو متحضرة[27]. إن اللغة الميدية لغة مجهولة، ولا نعرف عنها سوى بعض الكلمات التي ذكرها المؤرخ اليوناني (هوردوتس) الذي زار المنطقة بعد زوالهم بعدة قرون. ومن هذه الكلمات القليلة لوحظ وجود علاقة محدودة وغير واضحة مع اللغة الفارسية وطبعاً معها الكردية. مثل كلمة (سباكا spaka ـ كلب) و(أوفاسبا uvaspa ـ الخيول)[28].

أما ثقافتهم فإنه قد تم معرفتها بشكل أفضل من خلال بعض الفخاريات البسيطة التي وجدت في مناطقهم، ولكن ليس من المؤكد تماماً أنها تعود إليهم؛ لهذا لم تعترف بها المتاحف العالمية. كذلك هنالك حصون في المنطقة قد تكون لهم، وبعض جدرها وبواباتها قد سرقوه من القلاع الآشورية.

أما ديانتهم فلا يمكن التعرف عليها بسبب عدم وجود شهادات ولا وثائق، ولكن تم العثور على مطابخ وبقايا مبانٍ في منطقة (تيب نوشي جان Tepe Nush ـ i Jan) شمال همادان قد تكون معابد للنيران. لكن ليس هنالك إشارة واحدة بحرف واحد لديانة زرادشتية، أو غيرها.

هل الميديون أكراد؟!

هذا المقطع ننقله نصاً عن وكيبيديا الإنكليزية لأهميته:

((اقترح المؤرخ الروسي واللغوي فلاديمير مينورسكي Vladimir Minorsky أن الميديين الذين سكنوا على نطاق واسع في الأراضي التي يشكل الأكراد في الوقت

(27) ـ هنالك فرق كبير بين (الحضارة) و(الثقافة)، مثل الفرق بين (مستوى الابتدائية) و(مستوى الدكتوراه). فلا يمكن الحديث عن (حضارة شعب) وهو يجهل القراءة والكتابة. لكن يصح الحديث عن (ثقافة).

(28) ـ عن العلاقة اللغوية الغامضة بين (الميدية) ولغات ايران، طالع:

ـ P. Lecoq, Les inscriptions de la Perse achéménide, Paris, 1997, p. 46 ـ 49

ـ R. Schmitt, «Old Persian», dans R. Woodard (dir.), The Ancient Languages of Asia and the Americas, Cambridge, 2008, p. 98 ـ 99

الحالي أغلبيتها، ربما كانوا أسلاف الأكراد المعاصرين. ويذكر أيضاً أن الميديين الذين غزوا المنطقة في القرن الثامن قبل الميلاد، كانوا يشبهون الأكراد لغوياً، وقد قَبِلَ هذا الرأي العديدُ من القوميين الأكراد في القرن العشرين)).

ورغم ذلك، يجادل مارتن فان برويسين ـ van Bruinessen، وهو عالم هولندي، ضد محاولة الاستيلاء على الميديين كأجداد للأكراد. ويقول: (على الرغم من أن بعض المثقفين الأكراد يزعمون أن شعبهم ينحدر من الميديين، إلاّ أنه لا يوجد دليل يسمح بمثل هذا الارتباط عبر الفجوة الكبيرة في الوقت بين الهيمنة السياسية للميديين وأولى الوثائق عن الأكراد)[29].

ويتفق العلماء على الخلاصة التالية: (بشكل عام، العلاقة بين الكردية والميدية ليست أكثر من العلاقة بين الميدية الأخيرة ولغات ايران الاخرى: ـ البلوشية، والتاليشي، وجنوب قزوين، والزازا، والكوراني، إلخ)[30].

علماً بأن (أكبتان ـ همادان) عاصمة الميديين، مقطونة حالياً بأغلبية فارسية وآذربيجانية بالإضافة إلى أكراد. إذن من صالح أكراد العراق، القبول بالحقيقة التاريخية الجغرافية والانتماء إلى تاريخ الأرض التي يعيشون عليها هم وأسلافهم منذ آلاف السنين، أي إلى (كردستان العراق). على الأقل إلى (تاريخ أربيل) التي اختاروها لتكون عاصمة الإقليم الكردي العراقي.

(29) ـ الأكراد وبناء الأمة: مارتن فان برونسن: معهد الدراسات الاستراتيجية

(30) ـ عن العلاقة المحدودة بين الميدية والكردية، طالع:

G. Asatrian, Prolegomena to the Study of the Kurds, Iran and the Caucasus, Vol. 13, pp. 1 ـ 58, 2009. (p. 21

أربيل، مدينة نهرينية

قلعة اربيل الآشورية، وعند بوابتها نصب العالم العراقي الاربيلي:(ابن خلكان)

يمكننا أيضاً الحديث في هذه المرحلة عن مدينة (أربيل) التي تُعَدّ حالياً عاصمة أكراد العراق. إن تأسيس هذه المدينة يعود أساساً إلى تأسيس (قلعة أربيل) من قبل السلالة الآشورية في الألف الأول ق.م. لأغراض دفاعية لمواجهة هجمات (بدو الجبال)، مثل (قلعة كركوك). إن اسم أربيل قديم جداً وقد جاء بصيغ عدة خلال فترات زمنية مختلفة، إذ ورد في كتابات الملك السومري شولكي (2000) ق.م بصيغة (urbilum) وفي النصوص الآشورية والبابلية ورد بصيغ أربيلا وأربيلو وأربل... إلخ. هذه المدينة الواقعة وسط المسافة بين الزابين الاسفل والاعلى، تتميز طبيعة الأراضي المحيطة بها بالمتموجة أو شبه الجبلية وذات أمطار تكفي لنمو الحبوب البرية والمدجَّنة في أغلب السنين.

كانت أربيل عاصمة شمال العراق الدينية والمركز الرئيسي لعبادة عشتار آلهة الأنوثة والخصب. فيها شيد هيكلاً فخماً رائعاً لهذه الآلهة. وبسبب أهميتها الدينية لم يهجرها سكانها عند الحروب والحصار، وحتى الغرباء المهاجمون لم يعاملوها بقساوة.

إن (تل أو قلعة أربيل الحالية) تضم أطواراً سكنية وعمرانية متعاقبة منذ العصور الحجرية إلى وقتنا هذا وما زالت القلعة الأربيلية الشهيرة مسكونة. الأكراد يطلقون على أربيل اسم (هولير) وهي من تحولات الأسماء (أربيلا.. أروبيل، إلى هولير). في عام 1947 تم اكتشاف لوح تعريفي بالمشروع، بالخط المسماري: (أنا سنحاريب ملك العالم، ملك آشور، حفرت ثلاثة أنهار في جبال خاني إلى الشمال من مدينة أربيلا ـ مسكن الربة المبجلة الإلهة عشتار وجعلت مساراتها مستقيمة).

* * *

تاريخ دولة النهرين

كما وضحنا، فإن (بلاد النهرين) رغم توحدها الجغرافي والحضاري، فإنها مثل غالبية بلدان الارض، عاشت انقسامات سياسية ومنافسات بين مناطقها الداخلية، للاستيلاء على عموم البلاد. وحسب الفترات والمؤثرات الخارجية، فإن هذه الصراعات الداخلية قد تهدأ وتختفي وتسيطر الدولة الموحدة، وقد تستفحل ويشتد الانقسام.

إن بداية انبثاق الحضارة النهرينية مع بداية (ظهور الكتابة المسمارية) التي تعود الى حوالي (3400 ق.م) عام قبل الميلاد، حتى انتهت فعلياً كحضارة ودولة مع سقوط بابل على يد (الاخمينيين: عام 539 ق.م)، أي دامت ما يقرب ثلاثة آلاف عام، واتخذت هذه الحضارة شكلها السياسي والثقافي المتكامل مع قيام الملك (سرجون الأكدي) الذي مثل بداية سيادة اللغة السامية الأكدية وتوحيد الدويلات العراقية وتكوين أول دولة موحدة (2350 ق.م) على أرض النهرين.

إن تاريخ العراق القديم عانى من تشويه المؤرخين (المستشرقين) الذين فرضوا عليه المفاهيم التوراتية التي جعلت كل السلالات النهرينية (الأكدية والأمورية والآشورية والكلدانية) شعوباً مختلفة، بينما هي عشائر مختلفة من نفس الشعب واللغة والدين. إن الأكديين والعموريين والآشوريين والكلدان، مجرد سلالات لعشائر عراقية ناطقة بنفس اللغة التي سميت بـ (الأكدية). إن هذه السلالات، إما أنها حملت أسماء عشائر مثل (العموريين والكلدان)[31]، أو أنها انتسبت الى مدينة، مثل: (الاكديون: أكد)، و(البابليون: بابل) و(الآشوريون: آشور) وربما تيمناً بالإله (آشور- عاشور: بمعنى المخصب) إله الفحولة والقوة، وهو مذكر (عشتار) إلهة الأنوثة[32].

رغم المتغيرات السياسية واجتياحات الأقوام (الجبلية والسامية) المختلفة إلاّ أن

(31) ـ إن الكثير من أسماء الشعوب في العصر الحديث، كانت بالأصل أسماء عشائر، مثال: الفرنسيون، حتى القرن التاسع م كانوا يحملون اسم (غاليون: Gaulois)، ولكن بعد أن سيطرت عليهم قبيلة المانية محاربة تحمل اسم (Francs) أي (الفرنجة) حسب تسمية العرب. ومنها ظهر اسم (فرنسا).

(32) ـ هنالك جدالات وفرضيات عديدة عن معنى اسم (آشور) وفي الخلاصة نحن نعتقد أن الافتراش أكثر معقولية والاقرب الى الكلمة نفسها: عاشور.. بمعنى العشرة والكثرة والوفرة.

الوحدة اللغوية والدينية للعراقيين ظلت سائدة طيلة هذه القرون العديدة. إذ سادت (اللغة الأكدية) وهي من أولى وأقدم اللغات السامية المعروفة والمكتوبة، واتخذت تكوينها الثقافي والكتابي من خلال اللغة السومرية (المصطنعة، كما وضحنا) بما تحتويه من ثقافة ومعتقدات دينية وخط مسماري سومري. أصبحت الأكدية (بلهجتيها البابلية والآشورية) اللغة الرسمية لما يزيد على ألفي عام، وخلَّفت لنا الآلاف المؤلفة من النصوص والوثائق الطينية التي سمحت لنا بمعرفة كل شيء عن حياة النهرينيين [33].

وتميزت هذه المرحلة أيضاً بالدين الموحد: (عبادة الكواكب) وما يتضمنه من معتقدات وأساطير مثل أساطير (كلكامش، والخليقة، والطوفان.. وغيرها الكثير)، مع آلهة متعددة ممثلة للكواكب ومسؤولة عن حياة الإنسان والطبيعة: (نظام الأبراج وعلم التنجيم).

ولقد كان لمدينة (بابل) في وسط العراق دور أساسي كعاصمة حضارية كبرى لفترة ألفي عام تعاقبت عليها الكثير من السلالات والدول. كذلك (مدينة نينوى) في الشمال التي قادتها السلالة الآشورية وقدمت الملك الشهير (آشور بانيبال)، فقد لعبت دوراً حضارياً وسياسياً مكملاً ومنافساً لبابل، ومعهما (بلاد عيلام) التي كانت تتحالف أحياناً مع الآشوريين، وتقوم باحتلال (بابل)، أو (بابل) تحتلها. مثل جميع تواريخ العالم، فقد تخللت هذه المرحلة الكثير من الحروب والمتغيرات السياسية.

السلالات النهرينية الحاكمة

كما تبين، إن تاريخ (بلاد النهرين) مثل تواريخ باقي الامم، لم يكن موحداً من الناحية السياسية، بل تخللته الكثير من الانقسامات والصراعات الداخلية. لهذا من الصعب سرده بصورة منسجمة وموحدة بسبب التنوعات الداخلية الكثيرة. اتفق عموماً ولتسهيل الامر،

(33) ـ عن كمية ألواح النصوص النهرينية المحفوظة، قال عالم السومريات التركي، (ويسل دونباز)، إن تركيا تعتبر ثاني أكبر مركز في العالم للألواح المسمارية (الطينية)، بعد المتحف البريطاني. وإن المتحف البريطاني يملك ما يقرب من 200 ألف لوح طيني بابلي، فيما تملك أنقرة ما بين 50 ـ 60 ألف لوح طيني، وإسطنبول 73 ألفاً و213 لوحاً طينياً.
ولفت دونباز أن مكتبة قيصري (وسط) وحدها تضم ما بين 25 ـ 30 ألف لوح طيني، وتنظم اجتماعاً دولياً مرة واحدة كل عامين، حول هذه الألواح. وحول أعداد الألواح الطينية المكتوبة بالسومرية، قال إن تركيا تملك نحو 15 لوحاً مسمارياً مكتوباً بالسومرية، من أصل حوالي ألف و500 لوح سومري حول العالم.
ابحث عن موضوع: (تركيا.. مركز عالمي مهم للألواح المسمارية (مقابلة): موقع تركي بالعربية: وكالة الأناضول).

التركيز على سرد تاريخ المركز الاساسي أي (بلاد بابل)، التي تمحورت حولها جميع غايات وصراعات الفرقاء (خصوصاً آشور وعيلام، وغيرهم)، ولمدة أكثر من ألفي عام، حتى سقوطها النهائي (على يد الفرس الاخمينيين: 539 ق.م)[34].

لهذا ننبه إن هذا السرد لتاريخ السلالات النهرينية، تقريبي، بسبب التقاطعات والتداخلات مع العديد من المتغيرات والتواريخ. وقد جهدنا كي نسرده بصورة أكثر وضوحاً وتحديد أرقام السلالات بالتتابع مع صفاتها:

بدأت أولى فترات تشكل الدولة والحضارة في بلاد النهرين منذ الالف الثالث ق.م، وقد حكمت السلالات النهرينية التالية:

1 ـ السلالات الاولى (دويلات المدن السومرية: 2800 ـ 2400 ق.م): استمرت 600 عام، حيث كانت كل مدينة سومرية تحكم نفسها، مثل: (أوروك، أور، لجش، أوما، نفر..)، لكنها تشترك باللغة والثقافة والديانة الواحدة. يستحق أن يطلق عليه (عصر التأسيس الحضاري)، فأعظم ابتكاراته هي (الكتابة) التي بدأت معالمها الاولى قبل ذلك ببضعة قرون حوالي (3000 ق.م) على شكل نقوش صورية، ثم توضحت الى ما نسميه بـ (الكتابة المسمارية) المنقوشة على ألواح الطين المفخور والاختام الاسطوانية، التي دونت فيها السجلات الرسمية والاحوال الشخصية والمعاملات التجارية والشؤون الدينية، وأعمال الأمراء والملوك، والأساطير والأدب. كذلك ظهرت في هذا العصر فنون العمارة: المعابد، والقصور، والقباب. كذلك ظهر فنّ التعدين، وفنّ النحت، وابتكارات كثيرة شكَّلت أساس الحضارة النهرينية العظيمة.

2 ـ السلالة الثانية (الاكدية: الدولة النهرينية الموحدة) حوالي 2300 ـ 2150 ق.م: إذ نجح أحد زعماء (مدينة كيش السومرية)، (سرجون الأكدي) بالاستيلاء على الحكم، ثم توحيد مدن النهرين في مملكة واحدة. وشيَّد (مدينة أكد) قرب بابل. وفي هذا العصر أصبحت (الاكدية) اللغة الثقافية الرسمية لبلاد النهرين (مع بقاء السومرية لغة دينية). تطوّرت كذلك فنون العمارة وغيرها. بعد أقل من قرنين انتهت هذه السلالة نتيجة

(34) ـ مع نهاية بابل، انتهت الحضارة النهرينية واختفت لأكثر من الف عام، حتى نهضت من جديد مع نهوض (بغداد: بابل الجديدة) في القرن الثامن م.

ضغوطات (العموريين) من الغرب، و (العيلاميين) حتى انتهت على يد (الغوتيين) وهم من الأقوام الجبلية (أسلاف الاكراد) الذين تمكنوا من السيطرة على (أكد) لحوالي قرن.

سرجون الأكدي (2371 ـ 2316 ق.م) مؤسس أول دولة عراقية موحدة

وهو شخصية حيكت عنها الاساطير وقدَّسه ملوك النهرين طيلة التاريخ، وسرد تاريخ طفولته الذي يعتقد أنه أوحى بـ (حكاية طفولة موسى والنيل والفرعون). عاش في (مدينة كيش) في ظل الحكم السومري، ثم تمكن من أن يستولي على الحكم وتوحيد دويلات المدن السومرية، تحت اسم (بلاد سومر وأكد). شملت الدولة الخليج وعيلام (الأحواز) جنوباً، والشام حتى البحر المتوسط غرباً، وأجزاء من الأناضول شمالاً، حيث كانت مدينة آشور تحتل أحد المراكز الإدارية الأكدية المهمة. وقد عيَّن إحدى بناته (اناهيدونا) ككاهنة لـ (إله القمر) في (أور)، وهي شاعرة حفظت لها ترنيمتان من تأليفها، مع أغاني دينية. مات عن عمر طويل جداً بعد حكم دام أكثر من خمسين عاماً.

هذه المذكرات قد عثر عليها منقوشة في آثار نينوى من القرن الثامن ق.م، أي بعد سرجون بأكثر من 1500 عام! وهذا دليل على استمرار تقديسه وتداول اسطورته طيلة تاريخ النهرين:

((أنا سرجون، ملك الأكاديين، ملك القوة. أمي قديسة، أبي لم أعرفه. أعمامي أحبّوا التلال. مدينتي أزوبيرانو (الزعفرانية)، الواقعة على ضفاف الفرات. أمي القديسة حملت بي، وولدتني في السر. وضعتني في سلة وغطت عينيّ بالقار وألقتني في النهر. التقطني «عكي» من النهر وهو يتناول إبريقه. اتخذني «عكي» ابنًا له. وربّاني عيننيِ بستانياً لحديقته. وأنا بستاني، أحبتني عشتار. ومضت الأيام إلى أن صرت ملكاً لمدة 56 عاماً))[35].

(35) ـ طالع:

ـ ويكيبيديا بالانكليزية والفرنسية: Sargon of Akkad

كذلك:

_ Joan Goodnick - Westenholz, Legends of the Kings of Akkade: the texts, Winona Lake, Eisenbrauns, 1997, p. 37 - 49

_ The land of the two Rivers. 63 - 64 Leonard Corttrell.

3 ـ السلالة الثالثة (السومرية الاورية: 2113 ـ 2006 ق.م): خلال أكثر من قرن عاد الحكم السومري، بعد أن تمكن أحد زعمائهم من طرد الغوتيين. انتقلت العاصمة من (مدينة أكد) الى (مدينة أور). استمر الحكم أكثر من قرن، وقد تم إحياء الإمبراطورية الأكدية القديمة، وازدهرت الحضارة والتجارة والفتوحات كما كانت في العصر الأكدي. انتشرت الأعمال العمرانية الضخمة وحسن التنظيم والإدارة. وسنّوا الدستور والشؤون القضائية.

4 ـ السلالة الرابعة (البابلية العمورية: 1894 ق.م 1680): وهم عشائر من البادية الغربية، أول من اتخذوا (مدينة بابل) عاصمة لبلاد النهرين. وقد اشتهر بحكمها (الملك حمورابي)، كزعيم حكيم ومشرّع (قانون حمورابي). وقد تطورت الحضارة وشاع اسم (بابل) كأهم مدينة حضارية لألفي عام. في هذه الحقبة ظهرت لأول مرة القوى الاناضولية وهم (الحيثيون والخوريون ـ الميتانيون) الذين بدأوا بغزوات لشمال النهرين. لقد استولى الحيثيون[36] على بابل ولم يبقوا فيها طويلاً. كما غزا (الحوريون) منطقة كركوك واحتلوها زهاء قرن من الزمن.

(36) ـ الحيثيون والحوريون هم كما يبدو من أقدم الشعوب التي نطقت بلغة آرية، واستوطنوا في (بلاد الاناضول: تركيا الحالية) وشكلوا فيها أول دولة قوية شرق أوسطية (بين 1600 ق.م ـ 1178 ق.م)، قادرة على مواجهة الهيمنة الطويلة على المنطقة لدولتي (بلاد النهرين) و(مصر).

(شريعة حمورابي) أقدم شريعة!

عكس ما هو معروف، إن تركيز الشعب على مجال معين، إنما يدل على حاجته الماسة له ومعاناته من نقصانه. فاوربا الغربية عندما ركزت على ابتكار (الديمقراطية)، فإنما للتحكم بطبيعتها الاستبدادية الرافضة لكل اختلاف. كذلك ليست صدفة أن العراقيين هم أول من ابتكر (الشريعة المكتوبة) (ثم فيما بعد، برعوا في الفقه التشريعي الاسلامي)، وذلك نتيجة لمعاناتهم الدائمة من (حالة اللاّقانون) بسبب فوضى الغزوات وضعف الدولة، مع ميولهم الطبيعية للفردية والتسيب.

دونت القوانين في مسلّة وضعت في (معبد مردوخ)؛ وتتضمن 282 قانوناً متعلقاً بالعديد من القضايا؛ كالأحكام الاقتصادية والأسعار، والجمارك، والتجارة، وقوانين الأسرة؛ كالزواج والطلاق، والقوانين الجنائية المتعلقة بالاعتداء والسرقة، بالإضافة إلى القوانين المدنية؛ كالعبودية والديون، وقد تباينت العقوبات المتعلقة بهذه القضايا حسب وضع الجناة، وظروف الجرائم. وهذه بعض المواد المهمة:

18: إذا لم يطع العبد سيده، فيجب على الباحث إحضاره إلى القصر وإجراء تحقيق معه، ومن ثم إعادته إلى سيده.

48: إذا كان أي شخص مدين لشخص آخر بالمال، وتعرض حصاده للعواصف، أو الفشل، أو عدم النمو نتيجة نقص الأمطار خلال السنة، فإنه لا يعطي دائنه أي حبوب، ولا يدفع الإيجار في ذلك العام.

161: إذا تزوج رجل من امرأة وأنجبت له أبناء ثم توفيت، فإن مهرها يعود لأبنائها وليس لأبيها.

196: إذا تسبب رجل بفقع عين رجل آخر، فإن عين المسبب تفقع.

209: إذا قام رجل بضرب امرأة حامل، وأدى ذلك إلى فقدان جنينها، فإنه يدفع عشرة شيكل تعويضاً عن خسارتها.

221: إذا قام الطبيب بمعالجة العظم المكسور لمريض، فإن المريض يدفع له خمسة شيكل.

224: إذا قام جراح بيطري بإجراء عملية لحمار أو ثور، فإن مالك الحيوان يدفع للجراح سدس شيكل مقابل العلاج.

5 ـ السلالة الخامسة (البابلية الكاشية: 1680 ـ 1157 ق.م): وهم مثل (الغوتيين) قادمون من جبال النهرين المحاذية. وقد حرروا (بابل) من (الحيثيين الاناضوليين)، وأسسوا أطول سلالة نهرينية دامت خمسة قرون. وقد خلقوا دولة مستقرة تسيطر على كل بلاد النهرين، وشاع اسمها (كاردونياش: لاسم له علاقة بكلمة كرد؟!) وقد تمسك بهم أهل النهرين لقدرتهم على حمايتهم من مخاطر (الحيتيين) في الاناضول. كما اتسم عصرهم باستخدام الحصان في النقل والعربات في الحروب فاهتموا بالخيل وأنسابها. وكانت لهم علاقات جيدة مع الدولة المصرية. وقد تبنّوا تماماً الحضارة البابلية ولم تميزهم غير أسماء الملوك[37]. وقد انتهت على يد العيلاميين الذين استمروا فقط بضع سنوات.

6ـ السلالة السادسة (بابلية ايسن: 1154ـ1027 ق.م): وقد بدأها ملك (مدينة ايسن) في الجنوب، وأسس سلالة في (بابل) سلالة حكمت أقل من قرن. ومن أشهر ملوكها (نبوخذ نصر الاول: 1126ـ1105) لانجازاته المعمارية والعسكرية.

7 ـ السلالة السابعة (الآشورية 1153ـ 612 ق.م): من الصعب تحديد فترة الحكم الآشوري على بلاد النهرين. فهنالك فترات متقطعة من السيطرة المتبادلة بين بابل، ونينوى مقر الآشوريين. إذ كان الآشوريون يميلون إلى الحكم الذاتي عند ضعف الدولة المركزية في بابل، وذلك بسبب تعرضهم الدائم إلى اجتياحات قبائل الجبال والبوادي المجاورة، وكذلك اضطرارهم إلى اجتياح بابل لتحقيق وحدة بلاد النهرين.

برزت هذه المنطقة في زمن الملك الآشوري (شمشي حدد) الذي عاش في القرن الثالث عشر ق.م، وتمكن من تكوين دولة شملت معظم (بلاد النهرين وسوريا) وجنوب الاناضول، قبل أن تسقط بعد وفاته تحت سيطرة البابليين بقيادة (حمورابي)، حيث تحققت وحدة بلاد النهرين.

من أجل كسب أهل بابل وتوحيد البلاد، قام الملك (شمش آداد الخامس) 824 ـ

(37) ـ بسبب أصل الكاشيين المرتبط بأكراد العراق، ثمة موقف عنصري قومي (عروبي) من قبل بعض المؤرخين العراقيين، بوصف حكم الكاشيين بـ (المظلم) لكن جميع تفاصيل المصادر المختلفة تؤكد العكس تماماً. ابحث أيضا بالانكليزي عن: Kassites

810 ق.م. بالزواج من الأميرة البابلية (شميرومات) المعروفة في التاريخ والأساطير باسم (سميراميس) التي صارت الوصية على عرش ولدها الصغير بعد وفاة والده الملك وحكمت بلاد النهرين من العاصمة نينوى.

يعتبر (الملك المثقف آشور بانيبال: حكم بين 669 ـ 627 ق.م) من أشهر الشخصيات، بفضل امتلاكه أكبر مكتبة في التاريخ القديم، حُفِظَت فيها آلاف اللوحات الفخارية باللغتين الأكدية والسومرية، والتي ساعدت على معرفة الكثير من تفاصيل تلك الحقبة. ورث عن أبيه أمر الحرب مع المصريين الثائرين، وواجه في عام 652 ق.م تمرد أخيه شمش في بابل. كان مهتماً بالعلم والأدب والثقافة، ولقد كان مسؤولاً عن البحوث العلمية المستفيضة التي كان يعدّها رجال العلم عن الآثار البابلية القديمة. بعد موته ضعفت الدولة حتى تمكن (الكلدانيون: الخلديون) من جنوب النهرين بقيادة (نابو ـ بولاصر)، بالتحالف مع (الميديين الايرانيين)، من السيطرة على بابل سنة (626 ق.م) ثم على (نينوى) في 612 ق.م.

سميراميس الملكة الحقيقية والأسطورية!

إن اسم (سميراميس) هو التحريف الإغريقي لاسمها الاصلي: (سميرهمات) أي (سميرة الحمام: محبوبة الحمام)، وتقول الاسطورة إنها ولدت من حمامة على الفرات، وعندما أصبحت طفلة فائقة الجمال بيعت كعبدة في نينوى، فتزوجها الملك نينوس (تحريفات الاسم: نينوى، يونس، ذو النون.. ويعتقد أن أصله السامي يعني السمك) (الحمام مع السمك؟). وقد حيكت العديد من الأساطير الشرقية واليونانية والرومانية عن فتنة وأنوثة وجبروت هذه الملكة (البابلية ـ الاشورية)، ونسبت إليها الكثير من الإنجازات الكبرى، مثل الانتصار على الميديين وبناء بابل والجنائن المعلقة وغيرها.

إن الأصل التاريخي لهذه الملكة الاسطورية، يعود الى حقيقة زواج ملك (نينوى) (شمسو حدد الخامس) (823 ـ 811 ق.م)، من هذه الاميرة البابلية. ثم بعد أن توفي زوجها لم يكد يبلغ ابنها ولي العهد (حدد نيراني) (811 ـ 783 ق.م) سن الرشد، فاستلمت (سميرهمات) مملكة (آشور وبابل). وأصبحت وصية على عرش ولدها لمدة 5 سنوات حتى بلغ سن الرشد. لكنها استمرت تشارك الحكم منذ أيام زوجها ثم مع ابنها. وقد تحولت عبر التاريخ، وفي العصر الحديث الى رمز للأنوثة والأمومة والجمال المهيمن.

8 ـ السلالة الثامنة والاخيرة: (الكلدانية: 626 ـ 539 ق.م): وأطلق عليه أيضاً العصر البابلي الحديث (الاخير). الموطن الأصلي للعشائر الكلدانية هو جنوب

العراق. كانوا يحكمون باسم الآشوريين في بابل إلى أن انتزعوا الحكم في عهد (نابو ـ بولاصر). ومن أشهرهم الملك الاسطوري الشهير (نبوخذ نصر الثاني: 605 ـ 562 ق.م)، الذي اعتُبِرَتْ فترة حكمه عصراً مجيداً في تاريخ البشرية وازدهاراً في العصر البابلي الحديث. كان متحالفاً مع الميديين وكذلك تزوج من ابنة الملك الميدي سياخريس الأميرة (أميديا)، وأقام من أجلها الجنائن المعلقة. وقد ذكرته التوراة وأساطير الشعوب، وربطته بـ (السبي البابلي لليهود). وتدَّعي الإصحاحات الأربعة الأولى من (سفر دانيال) بإصابته بنوع من الجنون. توفي بعد حكم دام 44 عاماً أعقبه ملوك ضعاف، آخرهم (نبونيد)، سقطت على يد ملك الأخمينيين كورش عام 539 ق.م

نهاية آخر دولة نهرينية وسيطرة الاحتلالات الأجنبية

إن تاريخ جميع الامبراطوريات والحضارات، أشبه بصعود الجبل، حيث تبدأ بسيطة من السفح حتى تبلغ عظمتها في القمة، ثم تأخذ بالهبوط لتنتهي في الاسفل. هكذا تاريخ (العراق القديم: بلاد النهرين) خلال ما يقرب ثلاثة آلاف عام، عاش عدة حالات صعود وهبوط في منحنيات الجبل الحضاري الجبّار، حتى لفظ أنفاسه الاخيرة من التعب والهرم.

سقطت عاصمة الدولة النهرينية (بابل) في 13 تشرين الثاني عام 539 ق.م ودخلت الجيوش الأخمينية (الفارسية) بقيادة الملك (كورش). هكذا انتهت أكبر حقبة حضارية عاشتها البشرية بالتشارك مع الحضارتين الكنعانية والمصرية: (الحضارة الشرقية المشتركة). طبعاً هنالك أسباب كثيرة، معلومة ومجهولة، داخلية: سياسية اجتماعية مناخية، وإقليمية: ظهور شعوب ودول وقوى حضارية وعسكرية جديدة: بروز الشعوب الناطقة باللغات الآرية (الهندو اوربية)، في ايران والاناضول واليونان..

يمكن تحديد أسباب نهاية هذه الحضارة النهرينية وسقوط دولتها، بالعوامل التالية:

1 ـ اشتداد التنافس بين قطبي الدولة والحضارة النهرينية: (مدينة بابل) الواقعة على الفرات في جنوب العراق مركز السلالة الكلدانية، و (مدينة نينوى) الواقعة شمال دجلة مركز السلالة الآشورية، بالاضافة الى دور (عيلام: الاحواز)، رغم أنها كانت أضعف.

رغم الوحدة السكانية والحضارية (اللغوية والدينية) لهذين القطبين، إلاّ أن وضعهما الجغرافي حتَّم عليهما بعض الاختلافات في الميول والمؤثرات والمصالح. وهذا الانقسام بين قطبين (شمالي وجنوبي) أمر طبيعي موجود في جميع الأوطان الكبيرة، مثل مصر كما هو بين قطبي الصعيد والشمال.

2 ـ انتشار الانحطاط والفساد في النخب النهرينية (الدينية والسياسية). فمن الناحية الدينية استفحل التعصب المذهبي باتهام كهنة بابل لآخر ملك بابلي (نبونيد) بتفضيله الإله (سين ـ القمر) المفضَّل لدى أهل نينوى، على (الإله مردوخ) حامي مدينة بابل. وكذلك إلغائه الاحتفالات السنوية بعيد الربيع والخصب (حجتو). أما من الناحية السياسية، فقد عمَّت الخلافات في الطبقة الحاكمة وتكاثرت الدسائس والانقلابات الداخلية. فبعد وفاة الملك (نبوخذ نصر) تعاقب على الحكم أربعة ملوك خلال سبع سنوات، حتى تمكن (نبونيد) من بلوغ الحكم بانقلاب عسكري.

3 ـ تنامي القوة العسكرية الإيرانية والاناضولية ثم اليونانية، في القرون الأخيرة التي ظلَّت طيلة التاريخ بحاجة حيوية إلى اجتياح (الهلال الخصيب): (وادي النهرين والشام)، من أجل خصبها، وكذلك للسيطرة على شواطئ البحر المتوسط عصب التجارة العالمية. لنتذكر دور (الدولة الميدية الإيرانية) التي لعبت دوراً حاسماً في دعم السلالة البابلية الكلدانية ومساعدتها على إسقاط السلالة الآشورية. بعدها ظهرت (الدولة الأخمينية الإيرانية) التي راحت تحوك المؤامرات داخل (بابل) من أجل كسب المعارضين ضد (الملك نبونيد). وقد استثمر الفرس نقمة المعارضين المذهبيين والسياسيين للملك (نبونيد) حتى تمكنوا أخيراً من اجتياح بابل بالتعاون مع جماعات من النخب البابلية نفسها.

الملك (نبونيد) هل هو جد القريشيين؟

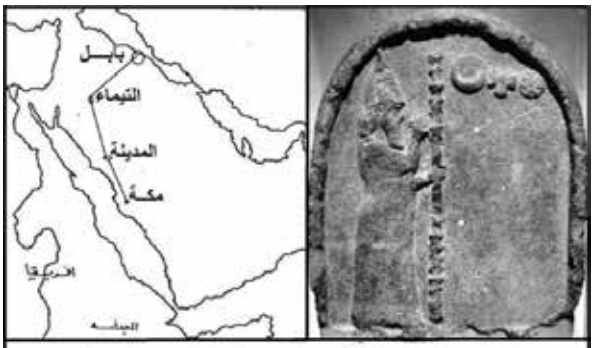

(نبونيد) آخر ملك بابلي، اتخذ من (التيماء، شمال السعودية) معتكفا روحيا لتعبد (سين) اله القمر. وقد اختفى هو وانصاره البابليين بعد سقوط بابل ويحتمل انهم اتحدورا بعيدا الى الجنوب

وقد اشتهر هذا الملك لعدة أمور؛ منها أنه آخر ملك بابلي قبل نهاية بابل على يد الفرس الاخمينيين، كذلك لأنه كان ملكاً روحانياً أمضى معظم سنوات حكمه (18 عاماً) معتكفا بعيداً عن بابل في بلدة (التيماء) (مركز عبادة إله القمر سين) وهي في الحجاز شمال مدينة يثرب، وقد جلب معه عدة عشائر كلدانية وبعض اليهود[38]. وبعد سقوط بابل اختفى هذا الملك ولم يعرف أحد مصيره. هنالك من يعتقد أنه قد اعتزل وتنسك في البادية. من المحتمل أن قصة (نبونيد) وهجرته إلى الصحراء العربية، هي التي أوحت للعرب بحكاية (إسماعيل) وأمه اللذين قطنا الصحراء ومنهما انحدر أجداد العرب الشماليين (المستعربة). ولهذا أيضاً يعود اعتقاد أهل قريش، حسب بعض الاحاديث للنبي وللإمام علي: (نحن نبط من بلاد الكوثى)، وهي مدينة بابلية مجاورة لبابل.[39]!

انتفاضات أهل النهرين ضد الاحتلال الاخميني الفارسي

على الرغم من أن (كورش الاخميني) قد تمكن بسياسته المغرية من كسب بعض النخب البابلية ومنهم اليهود، لكن الغالبية العظمى رفضوا هذا الاحتلال الاجنبي، فقاموا بعدة انتفاضات انتهت جميعها بالفشل[40]:

(38)ـ راجع: جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 607 /1 وبعده. ويشير إلى وجود بعض الألفاظ الكلدانية في لغة أهل يثرب والمناطق الأخرى التي تقع إلى الشمال منها وخاصةٍ في الزراعة.

(39)ـ قال محمد بن سيرين: سمعت عبيدة يقول: سمعت علياً يقول: من كان سائلاً عن نسبتنا، فإنّا نبط من كوثى. وروي عن ابن الأعرابي أنه قال: سأل رجل علياً فقال: أخبرني يا أمير المؤمنين عن أصلكم، معاشر قريش، فقال: نحن قوم من كوثى. واختلف الناس في قوله: نحن قوم من كوثى، فقالت طائفة: أراد كوثى العراق، وهي سرة السواد التي ولد بها إبراهيم، فإنّا نبط من كوثى، ولو أراد كوثى مكة، لما قال نبط، وكوثى العراق هي سرة السواد من محال النبط، وإنما أراد أن أبانا إبراهيم كان من نبط كوثى وأن نسبنا انتهى إليه. (لسان العرب، مادة كوث).

(40) ـ سياسة الدولة الاخمينية (قراءة تاريخية)

=

انتفاضة بابل الأولى

بين تشرين الأول 522 حتى كانون الثاني 521 ق.م أعلن أهل بابل الثورة بزعامة (ندينتو ـ بعل) الذي لقب بـ (نبوخذ نصر الثالث)، لكنه قتل بعد عشرة أسابيع عام 521 ق.م.

انتفاضة بابل الثانية (آب 521 ق.م)

بعد فترة وجيزة ثار البابليون مرة أخرى بقيادة (ارخا) وقد دعي بـ (نبوخذ نصر الرابع ابن نبونئيد: ملك بابل) ثم قُتل في 27 تشرين الثاني 521 ق.م ودخل (الفرس) المدينة ونهبوها وسرقوا أحد قبور الملوك البابليين وقاموا بإعدام 3000 ثائر.

انتفاضة بابل الثالثة والأخيرة (482 ق.م)

بقيادة (بعل شيماني) الذي اتخذ لقب (ملك بابل وملك البقاع). نجح الثوار بقتل الحاكم الفارسي (زوبيروس). لكن في النهاية تمكن الفرس من القضاء على الثورة وتدمير معابد بابل وأبنيتها الكبيرة وسويت بالأرض وتخريب مرافق الحياة، وكانت النهاية الاخيرة لـ (بابل).

مقاطع من رثاء بابل في المسيحية

سقطت، سقطت بابل العظيمة، وصارت مسكناً للشياطين، ومأوى لكل روح دنسة. يا ويلي يا ويلي أيتها المدينة العظيمة، بابل الجبارة، في ساعة واحدة حلّت نهايتك. تبدد عنك ثراء مغرياتك، وفقدت إلى الأبد خصبك وبهاءك... أيتها المدينة العظيمة، المتسربلة ببز وأرجوان وقرمز وجواهر ولؤلؤ. سيرثيك كل الملوك والتجار ويعفّرون رؤوسهم بالتراب ويصرخون محملقين في دخان حريقك:

يا ويلي يا ويلي أيتها المدينة العظيمة، من نفائسك استغنت جميع السفن، تجّارك كانوا عظماء العالم، وبسحرك انغوت جميع الأمم. وفيك سال دم الانبياء والقديسين، وجميع شهداء الأرض.

(مقاطع متناثرة من سفر الرؤيا ـ 18/ ترجمة ببعض التعديل).

* * *

ما الحضارة؟ وما الحضارة النهرينية؟

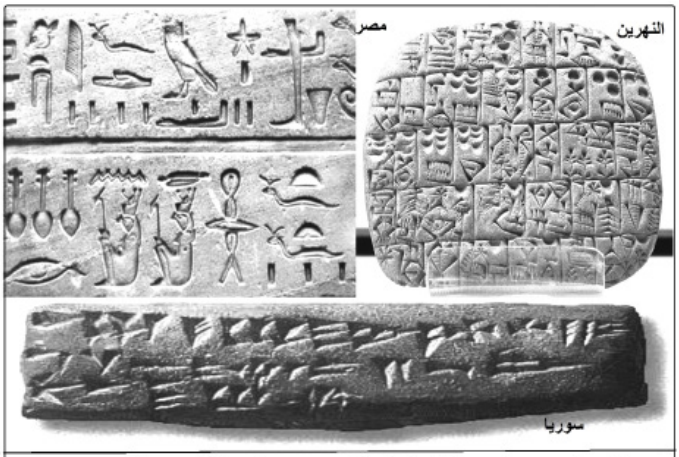

ان اقدم النصوص المكتوبة في العالم ظهرت بعد الالف الثالث ق.م(قبل 5000 عام) في النهرين ومصر وكنعان(ايبلا سوريا)، والتي تطورت الى اول ابجدية في التاريخ: (الكنعانية الفينقية). بعد ذلك بحوالي 2000 عام تمكنت البشرية:(الصين واليونان) ان تؤسس حضارات كتابية بنصوص حياتية وادبية

قبل الحديث عن (انجازات الحضارة)، يستحسن تعريف معنى مصطلح (الحضارة):

جميع (علماء الاجتماع والمؤرخون) في العالم يهتمون بهذين المفهومين الخطيرين: (الثقافة والحضارة)، منذ (ابن خلدون) وحتى العصر الحديث، أمثال: (تونبي، وشبلغر، وغيرهم). هما مفتاحان أساسيان لفهم المجتمعات والدول والحقب التاريخية، ماضياً وحاضراً.

بسبب أهميتهما تشعبت وتعقدت تعريفاتهما. ومن يقرأ ما مدّون بالعربي وبالاجنبي، من كتب ودراسات لتعريف (الحضارة) و(الثقافة)، فإنه يقيناً سوف يتيه بين الشروحات العجيبة المتنوعة بدرجة اختلافها الجوهري الى حد التناقض، أو الشكلي لحد السفسطة. والاكثر من هذا، كثيراً ما يتم الخلط بين هذين المصطلحين، واستخدامهما بصورة عشوائية وغامضة[41].

(41) ـ عن التعريفات المتعددة لهذه المفهومين، فإن جميع علماء الاجتماع والتاريخ تطرقوا لهما منذ أكثر من قرنين وحتى الان. بل إن أول من عرف (الحضارة) هو مفكرنا ومؤرخنا (ابن خلدون) منذ أكثر من ستة قرون.

قبل طرح تعريفنا لهما، نسجل التوضيح التالي:

نحن لا نعتبر (التقدم الحضاري) رديف (التقدم الاخلاقي الضميري) و (التخلف الحضاري) رديف الوحشية، بل إن عموم (التقدم) مهما كان، هو بجوهره (تقدمي مادي ومعرفي) أما (القيمة الانسانية والضميرية) فهي مستقلة تماماً. وأبسط مثال يوضح خلاصة فكرتنا:

إن «المتحضر» الذي يمارس (القتل بالمسدس)، ليس أكثر انسانية وضميرية من «المتخلف» الذي يمارس (القتل بالحجارة)!

إن المقصود بـتمييز (الثقافة) عن (الحضارة) التفريق (الوظيفي) وليس (القيمي)، مثلما نميز (البيت البسيط العادي) عن (القصر الفاخر الشامخ). نكتشف مدى أهمية هذا، إذا عرفنا بأن تاريخ البشرية أنتج مئات، بل آلاف الثقافات المختلفة، ولكنه لم ينتج سوى بضع حضارات معدودة. وإن من بين حوالي 3000 لغة في العالم هنالك فقط حوالي 100 تستعمل الكتابة[42].

أمام مثل هذه الوضع المصطلحي الحسّاس والشائك، هنا محاولة لتكوين (خلاصة تعريفية وسطية ممكنة) كالتالي:

ما هي الثقافة؟

الوجود الذي يحيطنا نحن البشر، الكرة الارضية والكواكب، ينقسم الى نوعين:

1 ـ البيئة الطبيعية: كل ما هو موجود طبيعياً خارج تدخُّل البشر، من نباتات وأنهار وبحار وحيوانات، وأفلاك.. الخ.

2 ـ البيئة الثقافية: كل المنتجات المادية والمعرفية المصنوعة والمبتكرة من قبل البشر.

مثلاً: النباتات والحيوانات هي طبيعة، ولكن عندما يبدأ الانسان بزراعتها وتدجينها

(42) ـ عن عدد اللغات المكتوبة في العالم:

Georges Jean, L'écriture, mémoire des hommes, Paris, Gallimard, coll. «Découvertes Gallimard / Archéologie » (no 24), 1987, 224 p.

واستخدام خشبها وأثمارها ولحمها وجلودها، ويرعاها ويرسمها ويغني ويتعبد لها ويكتب عنها، فإنها تتحول الى (ثقافة). (الطين) طبيعة، ولكن عندما نستخدمه للبناء والفخار فإنه يصبح (ثقافة).

(الثقافة) إذن هي التي تميز الانسان عن الحيوان، لأنه وحده الذي يؤثر بشكل ابتكاري على الطبيعة ويحولها لمنافعه ومتعه. فأية جماعة بشرية مهما كانت بدائية وأمّية لا بد أن تمتلك ثقافة تعيش عليها وتتوارثها. الحيوانات لا تمتلك ثقافة لأنها غير قادرة على أي إبداع وتراكم مادي ومعرفي، بل هي تحيا أساساً على سلوكيات غريزية محددة ومكررة عبر ملايين السنين. فمثلاً، إن الكلاب والقطط، رغم أنها تعيش مع الانسان منذ عشرات الآلاف من السنين، فإنها حتى الآن لم تضف حرفاً الى نطقها الغريزي: (عو عو) و(ميو ميو)[43]..

تنقسم (الثقافة) الى نوعين متداخلين متكاملين:

ـ الثقافة المادية: أي كل انتاج مرئي ومحسوس مثل الابنية والثياب وأدوات الزراعة والحرفيات والطعام والاسلحة والمصانع حتى القنابل النووية والمركبات الفضائية..الخ

ـ الثقافة المعرفية: وتعني المنتجات المعنوية (الروحية والعقلية) بجميع تنوعاتها: تقاليد وأعراف ونصوص دينية واسطورية وعلمية وفنون وآداب ومعارف مختلفة من فلك وطب وغيره.. الخ

طبعاً هذا التمييز منهجي، إذ في الواقع عموم (المنتجات الثقافية) هي خليطة (مادية ومعرفية): (البيت) يتكون من (جانب مادي) محسوس مثل الحيطان والابواب والاثاث، ولكن أيضاً (جانب معنوي) غير مرئي لعب دوراً أساسياً في تكوين البيت: معارف الهندسة والقياسات والرياضيات وفنون التجميل والتشجير.. الخ..

(43) ـ هنالك بعض العلماء الذين باسم محبة واحترام الحيوانات، يصرون على مساواتهم بالبشر، و(إن البشر حيوان ناطق، لا أكثر). لهذا تراهم يقولون بأن (الحيوانات الراقية مثل الشمبانزي، لها ثقافة)!؟ وهذا الاتجاه لدى العلماء أطلق عليه: (Animal culture).

ما (الحضارة) وما علاقتها بـ(الثقافة)؟

يصح تماما القول بـ:(الحضـارة الشرقيـة المشتركـة)، بفروعها:النهرينية والمصرية والكنعانية(الفينقية)، مثلما نقول:(الحضارة العربيـة الاسلاميـة) بفروعها العراقيـة والآسيوية والمصرية والمغاربيـة والاندلسيـة. وكذلك الحضارة الغربية: الفرنسية والالمانية والامريكية. الخ

حنابعل(هانيبـال) القرطاجي الفينقـي، آخر زعماء الشـرق وبخسارته انتصر الغرب الروماني

يمكن تعريف (الحضارة) بأنها هي نفسها (الثقافة)، ولكن على مستويات أكبر وأعقد وأرقى وأكثر في نتاجاتها المادية والمعرفية، وتشترط وجود الخواص التالية:

1 ـ الحضارة تشترط وجود الكتابة: دون الكتابة لا يمكن تطوير أية ثقافة. فهي وحدها التي تساعد على تسجيل وحفظ المعارف وتراكمها ونقلها للاجيال لتضيف عليها وتطورها. لهذا فإن الحضارة البشرية الاولى (الحضارة الشرقية الواحدة) بمجالاتها: العراقية والمصرية والشامية، (هذه التسمية من عندنا وسنفصلها بعد قليل) ما نشأت إلاّ بفضل اختراع الكتابة الصورية (المسمارية العراقية والهيروغليفية المصرية) في الالف الرابع ق.م، ثم بلغت ذروتها في اختراع الابجدية (السورية ـ الفينيقية) في الالف الثاني ق.م.

2 ـ الحضارة تشترط ابتكار (ثقافة مادية ومعرفية) جديدة لم تعرفها البشرية سابقاً: مثلاً (الحضارة الشرقية: العراقية والمصرية والسورية)، القديمة ابتكرت نظام الدولة والمعبد والكتابة واولى المدن المخططة والاهرامات، والزقورات، والجيوش المنتظمة وتقنيات الزراعة والري، والقوانين المكتوبة والكثير من المنتجات الحرفية

والفخاريات، بالاضافة الى الاديان المنظمة والقوانين وفنون النحت والموسيقى.. الخ. أما (الحضارة اليونانية ـ الرومانية: بين 500 ق.م 300 م) فقد طورت (معارف الحضارة الشرقية السابقة لها) وابتكرت وطورت خصوصاً الفلسفة والمسرح والجغرافية والتاريخ والطب والفلك. أما (الحضارة الغربية: من 1700 م ـ وحتى الآن) فقد ابتكرت الثورة الصناعية التقنية وطوَّرت الفنون والآداب ومختلف العلوم القديمة والجديدة..

3 ـ الحضارة تشترط وجود امبراطورية عالمية أو عدة دول قوية تشترك بنفس (العقيدة واللغة والثقافة) الخاصة بها. لأن وجود دولة قوية شرط لضمان السلام الداخلي ومنع الغزوات الخارجية، وهذا أساسي لاستقرار المجتمع وغناه وقدرته على الابتكار المادي والعقلي. فمثلاً إن (اليونان) كانت بعدة دول متصارعة ولكن (دولة اثينا) كانت هي المركز، ثم انبثقت (امبراطورية الاسكندر المقدوني القرن 4 ق.م) العالمية، التي نشرت عالمياً (اللغة والثقافة وفلسفات اليونان). أما (الرومان) فكانت لهم امبراطوريتهم البحر المتوسطية ولغتهم (اللاتينية وديانتهم). الصين لهم امبراطوريتهم و (لغتهم وعقيدتهم الكونفوشسية والتاوية). الهند، ظلت بدول مختلفة ولكن مع (اللغة السنكسريتية والعقيدة الفيدية ـ الهندوسية). أما (الحضارة العربية الاسلامية) كانت بامبراطورية أموية ثم عباسية، ثم الى دول عديدة من الهند حتى الأندلس، تشترك بنفس الدين مع العربية كلغة الثقافة والدين. أما (الحضارة الغربية الحالية) فهي كانت بعدة امبراطوريات اوربية (انكليزية وفرنسية وهولندية وبلجيكية) ثم أخيراً (الامبراطورية الامريكية)، وكلها تشترك بعقيدة مقدسة هي (الليبرالية) ولغتها السائدة عموماً هي (الانكليزية).

يتوجب التوضيح أنه ليس كل الامبراطوريات أنتجت حضارات، لموانع بيئية وجغرافية وعقائدية، مثل امبراطوريات ايران والاناضول وروسيا والمغول وغيرها[44].

(44) ـ كما وضَّحنا، إن التقدم الحضاري، ليس له علاقة بمستوى الذكاء، لأن الدول والامبراطوريات تحتاج أساساً الى (ذكاء أرضي عملي واداري وعسكري)، أما التقدم الحضاري فيحتاج أساساً الى (ذكاء متسام مخيالي). لهذا فإن جميع الحضارات، مثل الحضارة العربية الاسلامية، وآخرها (الحضارة الغربية الحالية) نشأتْ في (السهول وعلى شواطئ البحار). أما الهضاب والجبال مثل الهضبة الايرانية والاناضولية وغيرها، فتساعد على انشاء الدول والامبراطوريات العملية الإدارية.

4 ـ الحضارة تشترط أن تكون واسعة وتنتشر بين شعوب كثيرة، بسبب استيعابها لثقافات عديدة. مثلاً (الحضارة العربية الاسلامية) كانت عالمية حيث اجتمعت فيها ثقافات عشرات الشعوب التي دخلت الاسلام، من حدود فرنسا الى حدود الصين. وكل هذه الثقافات توحدت بـ (عقيدة الاسلام)، وعبَّرت عن ابداعاتها بـ (اللغة العربية) التي أصبحت لغة الدين والثقافة الاساسية للجميع. كذلك (الحضارة الغربية) منذ عدة قرون أصبحت هي المهيمنة على الكرة الارضية واستوعبت غالبية الثقافات الاخرى السابقة التي استعمرت شعوبها.

5 ـ الحضارة يجب أن تكون تراكمية متصاعدة بالتقدم المادي والمعرفي. بينما (الثقافة) يمكن أن تكون مستقلة عن سوابقها ومحلية ونتاج ظرفها الخاص، وليس ضروة أن تكون على علاقة بالثقافات الاخرى أو السابقة، مثال ثقافات الجماعات المنعزلة في الجبال والبوادي والجزر.

أما (الحضارة) فهي أشبه بالمرحلة الدراسية الأعلى من مرحلة الحضارة التي سبقتها. أي إنها يجب أن تستوعب الحضارات السابقة لها، ثم تضيف عليها وتطورها. (الحضارة اليونانية) قد استوعبت الحضارة الشرقية السابقة (العراقية والمصرية والكنعانية) وتجاوزتها، ثم ورثتها (الرومانية)، ثم (الحضارة العربية الاسلامية) التي استوعبت (الحضارة اليونانية ـ الرومانية) وأضافت اليها الكثير. أخيراً ها هي (الحضارة الغربية الحالية) قد استوعبت جميع حضارات العالم السابقة، وخصوصاً التي سبقتها مباشرة أي (الحضارة العربية الاسلامية). ولهذا من الخطأ العنصري ادعاء الغربيين بأن (الحضارة الغربية) وريثة (الحضارة اليونانية ـ الرومانية)، ويلغون الدور الحاسم والمباشر للميراث الحضاري العربي الاسلامي!

إنجازات الحضارة النهرينية[45]

إن حضارة النهرين ليست فقط أقدم وأول حضارة في تاريخ البشرية، مع الحضارة المصرية ثم الكنعانية، بل هي تتجاوز في بعض النواحي الكثير من الحضارات اللاحقة، لأنها أكثر حضارة قديمة خلَّفت لنا هذا الكم الهائل من الآثار الفنية والنصوص المكتوبة على ألواح وأختام طينية، التي لكثرتها لم يتسنَّ الوقت لدراستها كلها[46].

النهرين، الحضارة التي تركت أكبر كمية من النصوص المكتوبة!

تقول الباحثة الانكليزية (إيميلي باجي ـ بيرون):

((لا يعرف الناس كثيراً بشأن تأثير بلاد النهرين على ثقافتنا الخاصة.. لقد أعطتنا بلاد الرافدين العجلة وعلم الفلك والساعة المكوّنة من 60 دقيقة والخرائط وحكاية الطوفان والسفينة الناجية، وكذلك أول عمل أدبيّ في التاريخ «ملحمة گلگامش». لكن النصوص التي وصلتنا من هذه البلاد مكتوبةٌ باللغتين السومرية والأكادية، في أكثر من نصف مليون لوح طيني مُكتشف حتى الآن، وعلى الرغم من فكّ شفرة الكتابة المسمارية منذ 150 عاماً إلاّ أن حوالي 90% من النصوص المسمارية لم تترجم بعد... وهناك أيضاً أكثر من 50.000 من الأختام المنقوشة المتناثرة في مجموعات في جميع أنحاء العالم. على مدى آلاف السنين... مصادرنا من بلاد النهرين تفوق ما نملكه من مصادر متبقية من حضارات الإغريق والرومان ومصر، مجتمعة))[47].

---

(45) ـ هذا الموضع عن (انجازات الحضارة النهرينية) بالمشاركة مع المؤرخ العراقي الراحل (جعفر هادي حسن).

(46) ـ عن كمية ألواح النصوص النهرينية المحفوظة، قال عالم السومريات التركي، (ويسل دونباز)، إن تركيا تعتبر ثاني أكبر مركز في العالم للألواح المسمارية (الطينية)، بعد المتحف البريطاني. وإن المتحف البريطاني يملك ما يقرب من 200 ألف لوح طيني بابلي، فيما تملك أنقرة ما بين 50 ـ 60 ألف لوح طيني، وإسطنبول 73 ألف و213 لوح طيني.

ولفت دونباز أن مكتبة قيصري (وسط) وحدها تضم ما بين 25 ـ 30 ألف لوح طيني، وتنظم اجتماعاً دولياً مرة واحدة كل عامين، حول هذه الألواح. وحول أعداد الألواح الطينية المكتوبة بالسومرية، قال إن تركيا تملك نحو 15 لوحاً مسمارياً مكتوب بالسومرية، من أصل حوالي ألف و500 لوح سومري حول العالم.

ابحث عن موضوع: (تركيا.. مركز عالمي مهم للألواح المسمارية (مقابلة): موقع تركي بالعربية: وكالة الأناضول).

فمن حسن حظ العراقيين أنهم لم يستخدموا مثل المصريين ورق البردي المعرَّض للتلف، بل استخدموا الطين المفخور الذي سَمَحَ ببقاء هذا الكم الهائل من الوثائق. ويمكن تلخيص هذه المنجزات الحضارية فيما يلي:

الكتابة والترجمة والقواميس

للعراقيين إلهة للكتابة أسموها (نيسابا) (التي تحمل في يدها القلم) والتي كانت مهمتها الإشراف على الكتابة وفنها. وقد قام الكتبة بتأليف القواميس للّغتين السومرية والأكدية. فكان هؤلاء مترجمين من الدرجة الأولى (وقد ورث العرب والأوربيون كلمة ترجمانو من الأكدية العراقية). وكان الكتبة يتدربون في مدرسة خاصة بهم تسمى (أدوبَا) وتعني حرفياً (بيت الألواح). وكان على رأس المدرسة شخص يطلق عليه (أومُيا) وهي كلمة سومرية تعني (الخبير/ العارف) ويليه في الرتبة مسؤول الفصول الذي يطلق عليه (أدَا أدوبا) ثم هناك المختصون مثل (طوبشارنشد) خبير/ أستاذ الرياضيات و(طوبشار أشاكا) خبير/ أستاذ الهندسة والمساحة. وكان أهم موضوع يدرَّس هو اللغة السومرية ويطلق على الأستاذ الذي يدرّسها (طوبشار كنكيرا) المختص باللغة السومرية وأستاذها والذي كان له موقع خاص في هذه المدرسة. وبرزت أيضاً عدة نساء كاتبات، وكذلك كانت الكتابة معروفة بين الطبقات الفقيرة.

وتعتبر القواميس اللغوية التي ألفها هؤلاء الكتَّاب عملاً جديداً ومن أولى المحاولات في تاريخ المعرفة الإنسانية. ولم يؤلف مثل هذه القواميس بعد ذلك لقرون طويلة، إذ إن الإغريق لم يكونوا يهتمون بلغات الشعوب الأخرى. وأصبحت هذه القواميس مفيدة لبقية الشعوب بعد أن أصبحت الأكدية لغة الدبلوماسية والتجارة في الشرق الأدنى. وبتقدم الزمن اهتم النهرينيون بتأليف قواميس خاصة كقواميس أسماء الأحجار والنباتات والحيوانات والمعادن بل ألَّفوا قواميس لمعاني الأفعال وقواميس لغوية للأضداد والمترادف، بل وللجذور واشتقاقاتها واستعمالاتها وكذلك

(47) ـ ابحث عن مقالة بالانكليزية:

ـ The key to cracking long - dead languages?/ Sophie Hardach BBC - 10 December 2018

قواميس للكلمات النادرة التي تستعمل في الأدب. كما لم تخل هذه القواميس من توضيحات وتعليقات خاصة من فترة الألف الأول قبل الميلاد.

الفلك والجغرافيا والتنجيم

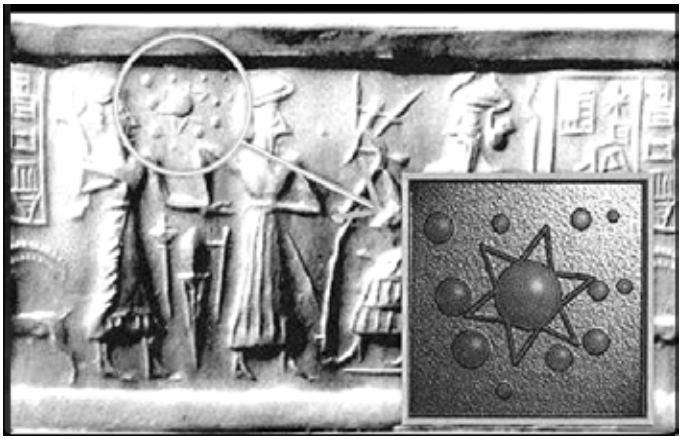

إن الديانة العراقية كانت قائمة على عبادة الكواكب السبعة، وأهمها الشمس والقمر والزهرة. فطبيعة العراق وانفتاح السماء والنوم في العراء، جعلهم يرقبون القمر والشمس والنجوم بشكل دقيق ويعرفون أسرارها. وكانوا يقومون بهذه المراقبة من على أسطح المعابد الدينية وأبراج خاصة في بعض المدن. كما تنبأوا بخسوف القمر وكسوف الشمس وراقبوا الرياح والسحب أيضاً. وفي ضوء علم الفلك قسَّموا السنة إلى اثني عشر شهراً (وما زالت أسماء الأشهر البابلية تستعمل عند اليهود وكذلك النظام الشمسي ـ القمري). وقسَّموا الشهر إلى ثلاثين أو تسعة وعشرين يوماً، وقسَّموا اليوم إلى أربع وعشرين ساعة، والساعة إلى ستين دقيقة. وقد وردت أسماء علماء فلكيين في بعض الرسائل البابلية التي عثر عليها وسجَّل هؤلاء حالات كسوف وخسوف بشكل دقيق كما يقول بطليموس. وظل الناس يستفيدون من خبرة البابليين في هذا المجال بعد زوال دولتهم خاصة؛ إذ نقرأ أن نابو ـ ريماني (القرن الخامس ق.م) وكدينو والكاهن بل أشور (القرن الثالث ق.م) كانوا من العلماء الذين استفاد منهم الإغريق في علم الفلك وأطلقوا عليهم أسماء إغريقية. وقد ذكر مؤرخون أن الإسكندر الأكبر كان معجباً بخبرة البابليين في علم الفلك وحكمتهم. كما ابتكروا علم المساحة والساعة الشمسية وتقسيم اليوم إلى اثنتي عشرة ساعة. واهتموا كذلك بالجغرافيا وقد عثر على

نصوص تتضمن قوائم لأسماء البلدان والجبال والأنهار والمدن، حتى المسافات بين المدن. وكتب على أقصى الشمال منها (الأرض التي لا ترى فيها الشمس أبداً). كما اكتشفت نصوص تشير إلى اهتمامهم بالجغرافيا التاريخية من عصر مبكر.

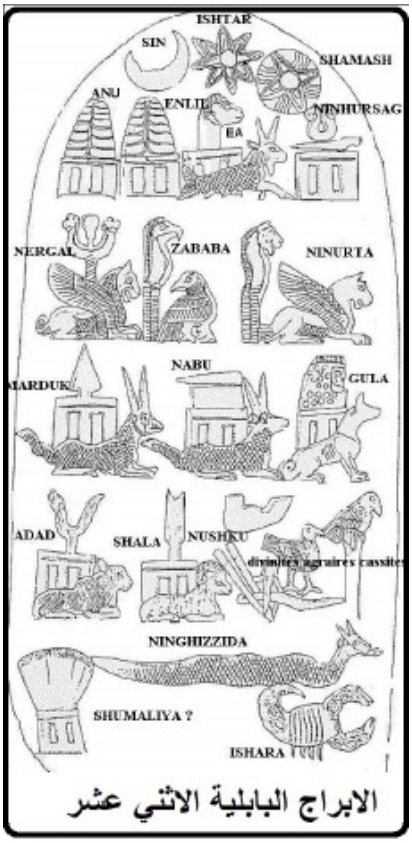

الابراج الاثنا عشر وتبدأ ببرج الحمل (نيسان)، وهو برج (الاله تموز) رمز الربيع والخصب الذكوري، الذي مع (عشتار: رمز الخصب الانوثي) يكونان الحياة وبداية السنة البابلية الجديدة!

أما بالنسبة للتنجيم، فهو لا ينفصل عن علم الفلك، فهم أول من أسس (نظام الأبراج) وقسَّموا الكواكب حسب أهميتها وقدسيتها. ودرسوا تأثير النجوم على طباع الأفراد والشعوب. ومن الأمور المهمة التي عثر عليها قوائم طويلة بالطوالع (طوالع الخير والشر) يصل عددها إلى الآلاف. وكان لهذه الطوالع مختصون بها يدرسونها ويتدربون على معرفتها لفترة طويلة يسمى الواحد منهم (الرائي أو الناظر). وهي مفيدة جداً لدراسة العادات والتقاليد والمعتقدات للمجتمع البابلي. وقد تأثرت بعض

الشعوب بهذا العلم ـ كما أطلق عليه بعض الباحثين ـ كالحثيين فجمعوا قوائم لها مماثلة أيضاً.

القوانين

إن (شريعة حمورابي) تُعَدُّ من أقدم القوانين في الحضارات القديمة وأكثرها شمولاً وتفصيلًا. إذ تحتوي على أكثر من مائتين وثمانين فقرة شملت الكثير من مناحي الحياة. كما تميزت شريعة حمورابي خاصة بجمال اللغة ودقتها وصفائها. وقد جاء في بعض ديباجتها التي تعطي بعض أسباب تشريعها: (إنه من أجل أن يسود العدل في البلد ويقضى على الشر والظلم وكي لا يضطهد القوي الضعيف). وقد وضعت نماذج منها في أماكن عامة كالمعابد كما كان التلاميذ يتعلمونها لمضمونها ولجمال لغتها وأصبحت نصوص هذه القوانين نموذجاً لما يسمى اللغة البابلية القديمة.

الطب

كان الطبيب يسمى (أسو) (وهو آسي في العربية / أسا في السريانية) وله موقع مهم في المجتمع، وكان يعد من أبناء الطبقة العليا وكانت مهنته متميزة لا علاقة لها بالدين أو السحر، إذ من كان يمارس السحر كان يسمى (أشيفو- الشافي). بينما كان الطبيب (الذي كان يتميز بين الناس بحمل أدواته معه وطريقة حلاقة شعره) يتعلم مهنته بالدراسة أولاً. وبعد الانتهاء من الدراسة كان يقوم بممارستها مع من هم أقدم وأكثر خبرة منه. وقد وصلنا عدد كبير من الألواح التي تضم قوائم بالأعراض والأمراض والوصفات الطبية التي كتبها أطباء، وهي تحتوي على تشخيص لأسباب طبيعية للأمراض. (ويعتقد أن أقدم وصفة طبية هي تلك التي وصلتنا من سلالة أور الثالثة). ويتبين من بعض هذه الوصفات التي اكتشفت أن العناصر المكونة للدواء ما زالت مستعملة اليوم لنفس المرض. ومن النصوص في مجال الطب مؤلَّف مهم اعتبره الباحثون تحفة علمية راقية يعود إلى منتصف الألف الثاني قبل الميلاد على الأقل وعنوانه (رسالة في التشخيصات الطبية والتكهنات). ويعتقد بعض الباحثين أن هذا المؤلَّف ربما كان يحتوي على خمسة آلاف إلى ستة آلاف فقرة، وقد عثر على أربعين لوحاً منها تمثل نصفها تقريباً.. ومما يدل على انتشار الطب هو وجود سبع مواد على الأقل في شريعة حمورابي تتعلق بعمليات

جراحية. ويرى بعض الباحثين أن البابليين قد مارسوا العلاج النفسي أيضاً الذي يعتقد أنه من نتاج العصر الحديث.

الرياضيات والصناعة

لقد عثر على آلاف الرقم والألواح التي تضم أعداداً رتبت بطرق مختلفة وعمليات طرح وجمع ومسائل حسابية تتعلق بالعمارة ومساحة الأرض والسقي. كما عثر على ألواح كثيرة تحوي تمارين رياضية، بعضها مع حلول لها والبعض الآخر بدون ذلك، وبعض هذه التمارين بمستوى متقدم. وإن ما وَصَلنا منها من قضايا رياضية يؤكد قدرتهم النظرية التي قلَّما وجد مثلها قبل العصر الكلاسيكي. وكان تصنيع المعادن شائعاً وأعطوا لمن يمتهن ذلك اسماً عاماً يدل على اختصاصه وهو (نفاخو) (بالآرامية نفاخا وبالعربية نفاخ). ثم خصصوا ذلك بإضافة اسم المعدن إليه فسمي الحداد (نفاخ فرزيلو) والذي يعمل بالذهب (نفاخ خورصي). (ومن هذه الكلمة أخذت الكلمة اليونانية خروسس للذهب). ويقول جورج روكس في كتابه العراق القديم: ليس من شك في أن البابليين (والآشوريين) كانوا يعرفون أكثر مما عثر عليه في كتاباتهم، فنقل الصخور الهائلة ونصبها مثلاً أو إنشاء ممرات مائية طويلة يدل على معرفة متقدمة بقوانين الفيزياء. وكذلك معرفتهم ببعض مبادئ الكيمياء التي كانت قد طبقت بشكل ناجح في الأدوية والأصباغ وعمل الزجاج الملون وتزيين الآجر بالمينا.

العمارة والبناء

فهم أول من أنشأ المدن والأبنية الجبارة. وشيَّدوا الزقورات التي هي أهرامات مفتوحة تنتهي بمعبد كبير. وتُعَدّ مدينة بابل من أعرق وأشهر المدن الحضارية، إذ احتوت على (الجنائن المعلقة) التي هي برج طوابقه من حدائق. كذلك (برج بابل) الذي أصبح خالداً بذاكرته البشرية وبشموخه وعظمته. وقد وصف المؤرخ اليوناني (هيرودتس) بابل وَصْفَ مُعجبٍ بها ومنبهر ببنائها وبتخطيطها وببواباتها فقال عنها: (لا توجد مدينة تشبهها في روعتها في العالم الذي نعرفه). وكان من أشهر هذه البوابات بوابة عشتار التي زينت واجهتها باللون الأزرق وزينت بعدد من التنانين (رمز للإله مردوخ) وكذلك بعدد من الثيران (رمز الإله حدد). وقد بلغ عدد هذه الرموز 575 رمزاً. وكانت البوابة موصولة

بشارع سماه الباحثون (طريق المواكب) وأطلق عليه البابليون إبور شابو (الطريق الذي لن يجتازه العدو). وتوجد بوابة عشتار اليوم في متحف برلين وهي تبهر الإنسان بشكلها وبنائها وروعة تصميمها. وذكر أن بابل ضمت أكثر من ألف معبد من مختلف المقاسات. وذكر بعض المؤرخين أن الإسكندر الأكبر (الذي كان في بلاد ما بين النهرين ومات فيها) قد أبدى إعجابه بها وأراد أن يجعلها عاصمته العالمية بل ذكر بعض هؤلاء أنه جعلها فعلاً عاصمته واستقبل السفراء فيها[48].

الديانة النهرينية، دنيوية، تقدس الخصب والكواكب!

الملك گوديا يحمل كأس النهرين، رمز الخصب والحياة!

الأدب والاسطورة والفن وتداخلها مع الدين

من المعلوم ان الانسان القديم كان يمزج كل نتاجاته وابداعاته ونشاطاته المادية والمعنوية. فالحكايات الاسطورية والاشعار والرسوم والنحت والاغاني والرقص، كانت ممتزجة مع رؤيته وتساؤلاته الدينية والطقوسية عن الحياة والكون.

وقد ترك لنا اهل النهرين اولى واقدم الاساطير المدونة مع نصوص وفيرة شعراً ونثراً من أدب وحكمة وفكاهة وغيرها. ومن اهمها: (ملحمة گلگامش) و (عشتار في العالم

(48) ـ هذا النص كتبناه بالتعاون مع (المؤرخ العراقي الراحل) جعفر هادي حسن.

السفلي) وأسطورة الخليقة (حينموعاليش ـ حينما في الأعالي)، وأساطير وحكايات وقصائد لا تحصى. وكذلك برعوا في الفنون في نشاطهم المعنوي والروحي، فقد كشفت لنا الجداريات عن نشاطاتهم الفنية المختلفة من موسيقى ورسم ونحت ونقوش وتصميم وزينة.

أما الديانة النهرينية فقد ظلت هي نفسها منتشرة في (سومر وبابل ونينوى، وكذلك عيلام) طيلة أكثر من 3000 عام، أي حتى ظهور المسيحية في القرن الأول الميلادي.

أهم ميزات هذه الديانة:

ـ أنها قدَّست السماء واعتبرت الكواكب تتحكم بالبشر؛ لهذا فإن العراقيين هم أول من أبدع الأبراج الاثني عشر التي هي أساس هذه الديانة.

ـ اعتبروا أن نهري دجلة والفرات وخصبهما من هبات السماء وتأثير الكواكب، ولهذا أبدعوا الإلهة (عشتار) رمز الخصوبة الأنوثية الممثلة بكوكب الزهرة، ومعها (تموز) رمز الخصوبة الذكورية والمتمثل عموماً بالقمر.

ـ أنهم لم يهتموا كثيراً بالحياة الأخرى والخلود، بل أكّدوا على الحياة الدنيا، وأن الانسان يخلَّد بأعماله وأبنائه. وكانت (أسطورة گلگامش) أفضل تعبير عن هذا الإيمان الدنيوي. فهذه (سيدوري سيدة الحانة) تختصر عقيدة العراق القديم، وهي تخاطب گلگامش في نهاية رحلته بحثا عن الخلود:

إلى أين تسعى يا گلگامش؟/ إن الحياة التي تبغي لن تجد/ فليكن كرشك مليئاً دائماً/ وكن فرحاً مبتهجاً نهار مساء/ وأقم الأفراح وارقص والعب/ واجعل ثيابك نظيفة زاهية/ واغسل رأسك واستحم بالماء/ دلل صغيرك وأفرح زوجتك/ فهذا هو نصيب البشرية/ إلى أين أنت سائر؟/ لن تجد قط الحياة التي تنشد/ فالآلهة عندما خلقوا البشر/ كتبوا عليهم الموت واحتفظوا بالخلود لهم[49].

أي أنها عكس (الديانة المصرية) التي هي (ديانة أخروية) قائمة على تقديس (الحياة بعد الموت) واعظم رموزها هي(الاهرامات: قبور الفراعنة). وهي التي ابتكرت مفهوم (الآخرة، يوم الحساب) الذي يليه (الخلود في حقول يارو- الجنة).

أسطورة گلگامش

(49) ـ ملحمة گلگامش ـ طه باقر

هي أسطورة سومرية مكتوبة بخط مسماري على 12 لوحاً طينياً اكتشفت لأول مرة عام 1853م في المكتبة الشخصية للملك الآشوري آشور بانيبال في نينوى. ويحتفظ بالألواح الطينية التي كتبت عليها الملحمة في المتحف البريطاني. الألواح مكتوبة باللغة الأكدية ويحمل في نهايته توقيعاً لشخص اسمه شين ئيقي ئونيني الذي يتصور البعض أنه كاتب الملحمة التي تعتبر أقدم أسطورة في التاريخ. وبطلها هو ملك أوروك (گلگامش) مع صديقه المتوحش (أنكيدو) ظلت متداولة لدى النهرينيين في جميع أنحاء العراق والمنطقة طيلة أكثر من 3 آلاف عام، وهي خلاصة العقيدة الدينية لأهل النهرين إذ تتناول أساساً مفاهيم: معنى الحياة والموت والخلود والحضارة والوحشية والصداقة والمرأة، وغيرها.

عشتار وتموز

تموز اله الخصب الذكوري مع
عشتار الهة الخصب الامومي

الاسم البابلي لأول إلهة هو (عشتار)، أي (عيش الأرض ـ أي خير وخصب الأرض)، آلهة الأنوثة، وخصوبة الأرض والحياة، ويسميها السومريون (إنانا ـ ابنة السماء)، وعشتاروت عند الفينيقيين، و(عناة) عند العرب، وأفروديت عند اليونان، وفينوس عند الرومان. وهي نجمة الزهرة والصباح والمساء معاً. رمزها نجمة ذات ثماني أشعة منتصبة على ظهر أسد، على جبهتها الزهرة، وبيدها باقة زهر.

ويقابلها (الإله تموز ـ ابن الحياة) رمز الذكورة والخصب الربيعي الهابط من

إله السماء. وهو يأتي في أول كل ربيع ليخصِّب عشتار لتزدهر الأرض وتنتشر الخضرة والغلال.

عيد الربيع النهريني (هگيتو ـ الحجة)

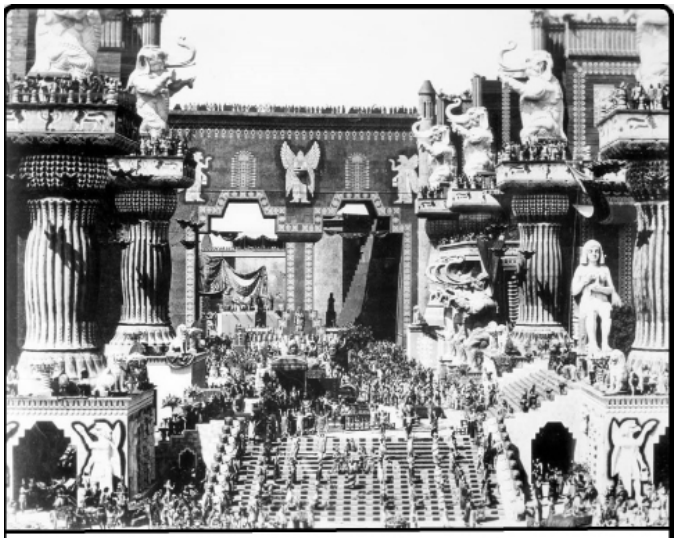

مشهد(احتفالات بابل) من اول فلم امريكي باهض التكاليف اخرجه عام 1916 المخرج(D. W. Griffith)

وهو عيد الفرح والخصب، ويكون في أول يوم من التقويم العراقي، أي في أول يوم من الربيع وهو 21 آذار، الذي كان في ذلك الوقت يعتبر (أول نيسان). وهي تسمية أكدية لهذا الشهر بمعنى (نيشان أي علامة الربيع). وفي هذا اليوم يظهر إله الخصب الذكوري السماوي (تموز) ليخصب (عشتار) إلهة الخصب الأنوثي الأرضي، فينبثق الربيع والخضرة والحياة. ويكون العيد عشرة أيام (عاشور) تتخلله الكثير من الاحتفالات الرسمية والشعبية، وتزول بعض الممنوعات مثل تساوي العبيد مع أسيادهم وكذلك اعتذار الملك وتعرضه لصفعة من المرجع الديني الأعلى، وغيرها الكثير من المباهج والأفراح. وقد اقتبس الإيرانيون هذا العيد بعد احتلال بابل، وراحوا يحتفلون به في نفس اليوم وبنفس الطقوس، باسم (يوم نيروز).

ملحق[50]

اليهودية ديانة بابلية: حقيقة السبي البابلي؟

مرقد (النبي عزير: عزرا) في جنوب العراق. وهو المؤسس الحقيقي لليهودية!

هنالك فكرتان خاطئتان شائعتان عن (سبي اليهود):

ـ أن السبي، عملية عنصرية موجهة فقط ضد (اليهود)!

ـ أن (اليهود) المسبيين عاشوا في (بابل) أسرى وعبيداً يعانون العذاب!

(50) ـ هذا جزء من دراسة مفصلة سبق وأن نشرناها كفصل خاص في كتابنا:
موسوعة اللغات العراقية: فصل اللغة العبرية/ سليم مطر

ولكن معاينة التاريخ الحقيقي، تدحض تماماً هذه التصورات التي أشاعتها (التوراة) فيما بعد.

سياسة السبي النهرينية

في الحقيقة إن (سبي اليهود) الى (بابل) لم يكن حالة استثنائية وموجهة ضدهم، بل كانت سياسة عامة للدولة النهرينية (السلالتان الآشورية ثم الكلدانية)، شملت جميع مناطق الهلال الخصيب (العراق والشام)، ودامت عدة قرون. وكانت تبتغي هدفين: نقل النخب المؤثرة (الزعماء والمتعلمين والصنّاع) للمدينة المتمردة، من أجل منع تمردها. ثم الاستفادة من هذه النخب المؤثرة من أجل إعمار مناطق تعاني الاهمال أو صعوبة السكن، مثل المناطق شبه الجبلية، والحدودية. فمثلاً في القرن الثامن ق.م، تم نقل (30) ألفاً من سكان (حما) السورية الى المناطق الشرقية العراقية المحاذية للجبال (ربما ديالى والكوت)، من أجل تعميرها ولمواجهة القبائل الجبلية. في نفس الوقت تم نقل (18) ألفاً من (سكان دجلة) ليستوطنوا (مدينة حما) المسبية! في هذا القرن أيضاً وعلى حملتين متتاليتين، تم نقل حوالي (ربع مليون) من سكان (وسط وجنوب العراق) من أنصار (المتمردين الكلدان)، أفراداً وعوائل كاملة، الى شمال العراق، لتعمير الاراضي والمستوطنات الجديدة. إن سياسة التهجير هذه كانت من القوة والاستمرارية بحيث بلغ عدد الذين تم نقلهم خلال ثلاثة قرون (800 ـ 600 ق.م)، داخل حدود الامبراطورية الآشورية التي شملت العراق والشام: (اربعة ملايين شخص أفراداً وعوائل وعشائر)[51]!؟ إذن إن (سبي اليهود) كان جزءاً صغيراً من حالة كبيرة دامت قروناً وشملت الملايين من سكان العراق والشام.

(51) ـ لمطالعة تفاصيل عمليات التهجير، راجع:
la Mesopotamie/Georges ROUX/P270 ـ 271 /
صدر أيضاً بالعربية: العراق القديم/ جورج رو
كذلك: فراس السواح ـ آرام دمشق ـ ص250 ـ 252

سبي اليهود

السبي البابلي لليهود، لم يكن خاصا باليهود، بل كان جزءا من عمليات تهجير سياسية- اقتصادية طالت عدة ملايين من سكان العراق وسوريا

من المعلوم إن عموم بلاد الشام (بلاد الكنعانيين) وبالذات منطقة (فلسطين) ظلت دائماً ساحة صراع على النفوذ بين الدولتين العراقية والمصرية. وكانت هنالك دائماً أحزاب وأطراف من أنصار إحدى الدولتين. إن عمليات السبي في (فلسطين) شملت (الكنعانيين) الذين هم غالبية السكان، و (العبرانيين) الذين كانوا عشائر بدوية حديثة الاستقرار وقد تمكنوا من تكوين ((مشيختين))[52] محميتين من (مصر): (يهودا ـ اورشليم) جنوب فلسطين، و (اسرائيل ـ السامرة) شمال فلسطين[53].

وقد بدأت عمليات التهجير الاولى في الفترة الآشورية بين القرنين التاسع والسابع ق.م وتركزت أكثر على (مشيخة اسرائيل) وأدت الى نهايتها في 721 ق.م. لكن هؤلاء المسبيين الاوائل قد اختفوا من التاريخ لأنهم قد انصهروا في سكان النهرين[54].

(52) ـ بالحقيقة إن البحوث الاخيرة ومنهم (المؤرخون الاسرائيليون الجدد)، يرفضون فكرة (مملكتي اسرائيل ويهودا)، بسبب عدم تركهما أي اثر أو ذكر يؤكد وجودهما. والخلاصة التي تم الاتفاق عليها، إن كانت (مشايخ) بسيطة غير قادرة على ترك أي أثر.
راجع مثلا، كتاب:
ـ أركيولوجيا الاستيطان الإسرائيلي: اسرائيل فلكنشتاين..
ـ كذلك هنالك سوء فهم للكلمة الكنعانية الارامية: (ملخ، ملخا) أي(ملك، ممكلة) التي تعني حرفياً: (مشيخة، أو امارة).

(53) ـ الاديان الحية ـ أديب صعب ـ ص129

(54) ـ ملامح التاريخ القديم ليهود العراق ـ أحمد سوسة ـ ص57
كذلك: تاريخ سوريا/ فيليب حتي ـ ج1 ـ ص213

أما موجة السبي الثانية فكانت من قبل الملك الكلداني (نبوخذ نصر)، في حملتين (597 و586 ق.م) وقد تركزت على (مشيخة يهودا)، وقد بلغ عدد المسبيين أكثر من 40 ألفاً، بغالبيتهم من النخب العليا:

((كل الرؤساء وجميع جبابرة البأس... وجميع الصنّاع والاقيان. ولم يبق أحد إلاّ مساكين شعب الارض))(سفر الملوك الثاني 24:14). في هذه المرحلة لم يتم تشتيتهم، بل جمعوا في منطقة بابل (وسط وجنوب العراق) مما سمح بتشكّلهم كجالية متميزة. بما أنهم كانوا كلهم من سكان (مشيخة يهودا)، لهذا شاعت تسمية (اليهود) كتسمية أقوامية مناطقية، وليست دينية، ولكن مع الزمن تحولوا الى طائفة دينية بهذا الاسم[55].

حياة اليهود في بابل

(إن بابل كأس ذهب بيد الرب تسكر كل الارض. من خمرها شربت الامم) (التوراة ـ أيرميا 51: 7)

على عكس الصورة السائدة، إن (يهود بابل) ما كانوا مسبيين مضطهدين، بل هم اندمجوا وأثروا في المجتمع البابلي حتى بلغوا طبقاته العليا[56]. إن المصادر التاريخية ومن ضمنها مصادر يهودية تعترف بأن (نبوخذ نصر) قد سمح للأسرى أن يصحبوا عائلاتهم وينقلوا معهم ممتلكاتهم ومواشيهم، وأنه وهب اليهود أخصب مقاطعاته وأسكنهم فيها مثل منطقة (نفر- نيبور) التي كانت تُعد من أغنى مقاطعات (بابل)، ومنحهم كذلك أوسع الحريات في العمل وممارسة طقوسهم الدينية. ولقد استفاد (اليهود) كثيراً من الحضارة البابلية، فتعلموا وأتقنوا الحرف والصناعات وامتلكوا الأراضي الزراعية، ودخلوا حقل التجارة.

(55) ـ نفس المصدرين: سوسه ـ ص 125 ـ 126 / ثم حتي ـ ص 220
(56) ـ الاديان الحية ـ مصدر سابق ـ ص130

تدوين التوراة والتلمود في بابل

مثل كل جماعة سكانية مهاجرة، كان هنالك دائماً (نخبة من المتعصبين المتشددين: الانبياء) متمسكين بالماضي ورفض الانصهار والتثقيف بالعودة إلى (الاصول: مشيخة يهودا). وهم الذين أدخلوا في اليهودية تلك الفكرة المقدسة الاساسية: (العودة الى الارض الموعودة: فلسطين)!

هذه النخب اليهودية البابلية، هي التي عملياً (أنشأت الديانة اليهودية) أو على الاقل حوَّلتها من (عقيدة شعبية بدائية شفاهية) الى (عقيدة مكتوبة)، إذ بدأوا بتدوين ميراثهم الشعبي القديم في كتاب، ليس صدفة أنه حمل تسمية (توراة: تراث)[57]. وفيه قد مزجوا بين مصدرين:

ـ الميراث الشفاهي الكنعاني العبراني (عندما كانوا في فلسطين)، مع الثقافة النهرينية التي يعيشونها في بابل.

(57) ـ يتفق غالبية الباحثين في تاريخ الكتاب المقدس، أنه قد كتب من قبل اليهود أثناء سبيهم في (بابل) بين القرن السابع حتى القرن الثالث ق.م، أو في أحسن الاحوال، أنهم أعادوا كتابته بالاعتماد على ما ورثوه من لفافات متنوعة المصادر والتواريخ والحاوية على معلومات متناقضة ومتكررة، بالاضافة الى ما حفظته ذاكرتهم. إن هذا التناقض والتكرار في (نصوص التوراة) هو الذي جلب انتباه الباحثين الاوربيين منذ القرن السادس عشر.
راجع: موسوعة وكيبيديا باللغات العربية والفرنسية والانكليزية (اليهودية)./ كذلك:
ـ فراس السواح ـ آرام ودمشق واسرائيل ـ ص10

ويمكن تحديد نشأة (الديانة اليهودية) بالمراحل الثلاث التالية:

ـ تدوين (التوراة: التراث) في بابل[58]./ ـ نقل (اليهودية) الى فلسطين بعد سقوط بابل على يد (الفرس:539 ق.م)./ ـ إكمال (اليهودية) بتدوين (التلمود: البابلي: التشريعي) في بابل. (تلمود: تلمذة: تعاليم).

التوراة أقرب ما يكون الى (كتاب بابلي)!

من خرافات التوراة، حكاية جنون الملك البابلي (نبوخذ نصر) بسبب النبي دانيال. هذه اشهر لوحة عن جنون الملك للرسام والشاعر الانكليزي وليم بليك

عن تأثر اليهودية بالثقافة البابلية، احتوت التوراة على الكثير من الميراثات العقائدية والثقافية البابلية، بحيث يصح القول. وهذه بعض الميراثات البابلية المتضمنة فيه: (اسطورة خلق الكون والانسان / جنة عدن والفردوس المفقود / الطوفان ونوح / قصة هابيل وقابيل / أصل الانسان واللغات وبرج بابل / طفولة سرجون وطفولة موسى / محاربة قوى الشر / غضب الرب وانزال الكوارث / العهد بين الرب والعبد / قوانين حمورابي والوصايا العشر / البكاء على تموز وانتظار المخلص / أناشيد الزواج المقدس والمزامير ونشيد الانشاد / صبر أيوب). وغيرها من الحكايات والرموز التي لا تعد، مثل اختيار يوم (السبت) البابلي لـ (السبوت والراحة). ولازالت اسرائيل تطلق عملتها اسم (شيكل: ثقيل) وهو اسم العملة البابلية[59].

(58) ـ من خلال تنوع نصوص التوراة واختلاف أساليبها ومعانيها، يتضح أن كتبتها يتجاوز عددهم الخمسة. والاعتقاد السائد أن (عزرا الكاتب اليهودي البابلي) في القرن الخامس قبل الميلاد، هو الذي جمع وحرر نصوص التوراة. ثم بعده استمرت أجيال من الكهنة الذين أضافوا «طبقات على ظهر طبقات» من النصوص، حتى أصبحت بالشكل الذي نعرفه اليوم.
طالع مثلا:
ـ كتاب بابل والتوراة: الاب سهيل قاشا
ـ اختلاق اسرائيل القديمة: كيث وايتلام

(59) ـ للاطلاع على تفاصيل الأثر البابلي في التوراة، راجع:
ـ فيليب حتي/ تاريخ سوريا ـ ج2، ص242 ـ 245
ـ من سومر الى التوراة/ الفصل الرابع
ـ أثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية ـ الاب سهيل قاشا
ـ كتاب المؤرخ الاسرائيلي: زلمان شازار ـ تاريخ العهد القديم ـ القسم الثاني

(عزرا البابلي) منجز الدين اليهودي

كان اليهود العائدون الى فلسطين، متعصبين حتى ضد اخوانهم الذين بقوا في فلسطين باعتبارهم قد انحرفوا عن العقيدة الاصلية، وراحوا يتزاوجون مع الكنعانيين ويتَّبنون بعض مقدساتهم مثل (عشتار وتموز)[60]!. ولكن رغم ذلك التعصب والحماس، فإن مشروع إعادة بناء الهيكل ما كان ناجحاً، حتى بعد مرور أكثر من قرن على العودة. بعد ذلك قام (نحميا وعزرا البابلي) بمحاوله ثانية لترتيب حال اليهود هناك. في عام (444 ق.م) رحلا من بابل الى فلسطين وقد اصطحبا معهما ألفاً وسبعمئة يهودي بابلي. بعد جهود كبيرة من انشاء تنظيم ديني صارم أجبر يهود فلسطين بالقسم على التمسك بعهد موسى، ورفض تزويج بناتهم لغير اليهود، بل حتى التخلي عن زوجاتهم غير اليهوديات واعتبار نسلهم أبناء زنا. وصار الكهنة هم الحكام الآمرين. إن هذه المجموعة البابلية بقيادة عزرا هي التي قامت بكتابة ما سمي فيما بعد بـ (التلمود الفلسطيني). ومنذ ذلك الحين صارت اليهودية ديانة محددة ومتميزة، تحمل صفات الانغلاق العرقي والديني. وأمست الطقوس الشكلية مقدسة وصارمة مثل يوم السبت والصلاة في هيكل اورشليم والاحتفال بالاعياد والمناسبات اليهودية المعروفة[61].

تمسك اليهود بالبقاء في (بابل)

ضريح النبي (ذو الكفل: حزقيال)
في محافظة بابل

(60) ـ الاديان الحية ـ أديب صعب ـ ص132

(61) ـ عزرا 10:3 ـ 10 ،5 وما بعده/ كذلك نحميا 35 :13/ كذلك الاديان الحية ـ ص133

ـ أفضل دليل على أن يهود بابل ما كانوا مضطهدين بل أحرارا وأثرياء: بعد سقوط (بابل:639 ق.م) على يد الفرس، كلفهم (الملك كورش) بالعودة الى (فلسطين) كحكام لها وتابعين له. لكن غالبية اليهود رفضوا العودة. بل حتى الذين رحلوا الى فلسطين سرعان ما عاد غالبيتهم الى (بابل)، التي بقيت محطة إنقاذ لليهود كلما ساءت أحوالهم في فلسطين، خصوصاً في الحقبة اليونانية والمسيحية.

بقي العراق المقر الاساسي للديانة اليهودية، حتى بالنسبة ليهود فلسطين. لهذا تراهم كانوا ما إن يتعرضوا الى ضائقة في فلسطين، سرعان ما يلجأوا الى العراق. هنالك وقائع كثيرة تؤكد هذه الحالة. ففي سنة (63 ق.م) عندما سقطت (الدولة المكابية اليهودية) في فلسطين على يد (الرومان، هاجر الآلاف من اليهود ولاسيما من رجال الدين إلى أرض بابل)[62]. لقد ظل علماء (يهود بابل) فعّالين حتى في المدارس اليهودية في فلسطين. فها هو الرابي «أبا عريقا» ينتقل من العراق إلى فلسطين ويؤسّس أكاديمية «سورا» ويذكر عادة بلقبه الشائع «راب» كذلك (صموئيل) الفلكي والطبيب[63]. والدليل الاكبر على تمسك اليهود بالبقاء في (بلاد النهرين) أن كتابهم التشريعي الكبير (التلمود البابلي) قد استمر تأليفه في (الحوزات اليهودية البابلية) لعدة قرون حتى تمّ في القرن الرابع م.

اليهودية عقيدة بابلية: دنيوية اساسا، ثم سماوية!

إن النقطة الاساسية التي تجمع بين العقيدة اليهودية والديانة العراقية (البابلية ـ الآشورية)،هي: ((الايمان بالحياة الدنيا فقط والاعتماد على رب سماوي جبّار بانتظار المسيح المنقذ، أي تموز لدى العراقيين)). أي إن الديانتين العراقية واليهودية، ليستا

(62) ـ انظر الموسوعة الفلسطينية ـ الأطماع الصهيونية في القدس ـ تأليف عبد العزيز محمد عوض ـ القسم الثاني ـ المجلد السادس ـ الطبعة الأولى بيروت 1990. ص 860.

(63) ـ إن دور (النخب اليهودية البابلية) الحاسم والقيادي في ابداع وتطوير اليهودية، لم يقتصر فقط على المرحلة الاولى للتأسيس الديني، بل استمرت على مراحل متواصلة عدة بلغت أكثر من 1500 عام، أي من (الحقبة البابلية) في القرن السابع ق.م حيث تكونت الجالية اليهودية في بابل، مروراً بالحقبة (ألآرامية المسيحية) في ظل السيطرة الخارجية الاجنبية، حتى الحقبة (الحضارية العربية الاسلامية)، الى ان انتهى الدور اليهودي العراقي الابداعي مع انتهاء الدور الحضاري للعراقيين عموماً مع سقوط بغداد العباسية عام 1258م. وعاد دورهم المتميز مع تأسيس الدولة العراقية الحديثة (1921) في السياسة والفن والتجارة، حتى نهاية وجودهم بعد نشوء اسرائيل 1948.

سماويتين، بل (دهريتين دنيويتين) لأنهما لا تؤمنان بالحياة الأخرى[64]. فليس هنالك يوم حساب وجهنم وجنة موعودة، بل إن الانسان خيره وشره يلاقيه في حياته، ولا تخلده إلاّ أعماله ونسله. ويمكن اختصار هذه الفكرة بقول (سيدة الحانة الى گلگامش):

((لقد قدرت الآلهة الفناء للانسان/ واستأثرت بخلود الحياة/ فاملأ بطنك بملذات الطعام/ وابتهج ماشئت ليل نهار/ فهذا هو نصيبنا من الدنيا))[65]. لكن يتوجب التأكيد على أنه رغم (دنيوية) الديانة العراقية، إلاّ أنها كانت (أخلاقية) تبتغي العدالة والانسانية، ويكفينا دليلاً (شريعة حمورابي).

إن العقيدة السماوية الحقيقية لم تبدأ مع (اليهودية الاصلية)، بل مع (العقيدة العرفانية ـ الغنوصية) التي تعتبر المسيحية والصابئية من اولى أديانها[66].

❋ ❋ ❋

حضارة النهرين (MESOPOTMIA) في الثقافة العالمية

إن حضارة النهرين لها أهمية عالمية في جميع بلدان المعمورة، وتبدأ بها كل الكتب التي تدرس تاريخ الحضارة في العالم بجانب الحضارة المصرية. وهنالك في غالبية الجامعات أقسام خاصة لتدريس هذه الحضارة واللغتين السومرية والأكدية. واكتسبت الحضارة النهرينية أهمية أكثر، لأنها تُعَدُّ مركزية في الكتاب المقدس (التوراة) وفي الديانتين اليهودية والمسيحية؛ لهذا فقد اهتمت بها أيضاً الثقافات الفنية والأدبية في العالم، وأصبحت (بابل) كذلك (نينوى) اسماً شائعاً في الكثير من الإبداعات العالمية المعروفة، من سمفونيات أوبرات ولوحات وأفلام وروايات، وحتى في كتب وأفلام الأطفال.

(64) ـ موسى والتوحيد ـ فرويد ـ ص26 ـ 27/ كذلك:
ـ نائل حنون ـ عقائد ما بعد الموت في حضارة بلاد الرافدين ـ ص86

(65) ـ حول وصف عالم الموت في الديانة العراقية، طالع (ملحمة گلگامش) ـ اللوح السابع ـ العمود الرابع ـ اعتمدنا ترجمة السواح.

(66) ـ بالنسبة للعرفانية راجع القسم الاول من ملف المندائية في موسوعتنا هذه/ كذلكCatholic Encyclopedia /Gnosticism
ـ كذلك من الذين ناقشوا أصل العرفانية بصورة واضحة ودافعوا عن أصلها المشرقي، المفكر السوري: جورج طرابيشي ـ مذبحة التراث ـ دار الساقي ـ بيروت 1993 ـ ص 73 ـ 129 / في هذا الكتاب رد طرابيشي بصورة مفصلة وناجحة على المفكر الجابري الذي نجح كثيراً بتفصيل العرفانية، لكنه احتقرها واعتبرها يونانية فارسية.
طالع: محمد عابد الجابري ـ بنية العقل العربي ـ المركز الثقافي ـ الدار البيضاء 1986ـ القسم الثاني فصل خاص بالعرفانية.